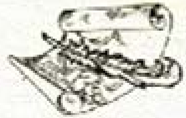
الأعلام من الأدباء والشعراء



ابن عبد ربه

مليح الأندلس

تأليف

أحمد حسن بسج

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

ابن عبد ربه

مليح الأندلس

تأليف

أحمد حسن بسج

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وبعد...

فإني نظرت في المكتبة العربية، فرأيت أنها تفتقر إلى الدراسات الميسّرة للطلاب والباحثين تكون عوناً لهم في دراساتهم وأبحاثهم. من هنا وجّهت العناية للأدب العربي في الأندلس، لاعتقادي بأن الدارسين والكُتّاب لم يُعطوا هذا العصر حقّه، ولم يُنصِفوا أعلامه فبقيت الآثار تحت الأنقاض، ولا يكاد طلابنا يعرفون عن حضارة العرب في الأندلس غير القشور. ورأيت أن أخصّ، من أعلام الأندلس، أحمد بن عبد ربّه الذي اشتهر من خلال كتابه «العقد الفريد»، ولكن التعرّف إلى صاحب العقد من خلال عقده أمر يحتاج إلى جهد بالغ، من هنا الحاجة إلى مثل هذه الرسالة. ولا يسعني إلاّ أن ألتمس من القارىء الكريم، العذر، إن كنت قصّرت أو أخطأت، وإن كنت أحسنت فللّه الفضل والمِنّة.

بيروت ٢٥ رمضان ١٤١٣ للهجرة
بيروت ١٨ آذار ١٩٩٣ رومية

الفصل الأول
لمحة عن الأحوال العامّة
في عصر ابن عبد ربّـــه

١ ـ جغرافية الأندلس:

أطلق العرب اسم «الأندلس» على شبه جزيرة إيبريا بعد فتحها. ولكن الغموض يشوب هذه التسمية من حيث أصلها ومنشؤها، لذلك يرى البعض صلةً بين هذا الاسم وبين اسم قبيلة «الڤندال» الجرمانية، وهكذا تكون الأندلس مشتقّة من «ڤنداليشيا» Wandalicia.

وفي نفح الطيب للمقرّي: «وأول مَن سكن الأندلس على قديم الأيام، فيما نقله الأخباريون، من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش ـ معجمة الشين ـ بها سُمّي المكان، فعُرِّبَ فيما بعد بالسين غير المعجمة...».

تقع الأندلس في الجنوب الغربي من أوروبا، يحدّها جنوباً مضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلنطي، وفرنسا أو بلاد الفرنجة ـ كما سمّاها العرب قديماً ـ من الشمال، ويلفّها البحر المتوسط من الجنوب باتجاه الشرق.

أما طبيعة البلاد، فجبلية بمعظمها، خصوصاً في المناطق الشمالية حيث تمتدّ جبال «البرنس» التي تفصل الأندلس عن فرنسا،

وهي جبال عالية وعرة، وفي وسطها تمتد هضاب أطلق عليها المسلمون اسم «جبل الشّارات» التي ينبع منها نهر تاجة ونهر دويرة، وتقع في هذه المنطقة وعلى نهر تاجة عدة مدن منها طليطلة، وشنترين، ويتجه النهر المذكور إلى المحيط الأطلسي. أما نهر الوادي الكبير، فينبع من جبال شقورة ويصبّ في المحيط وتقع عليه كلٌ من قرطبة وإشبيلية وقرمونة. وفي الجنوب، تمتد سلسلة جبال نفادا لتفصل بين الجنوب والجنوب الشرقي، وعرفت هذه الجبال بجبال الثلج لبياض قممها صيفاً وشتاءً. وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب في صفة الأندلس ما نصّه[1]: «. . . فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل مائلاً إلى البرد. وقد خصّها الله من الريّ، وغدق السُّقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور المياه، وكثرة الفواكه، وتبحّر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء وابيضاض ألوان الإنسان، ونُبْل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطِّباع، ونفاذ الإدراك، وإحكام التمدّن والاعتمار بما حُرِمَه الكثير من الأقطار مما سواها». وقد ذكر المقرّي مثل ذلك ومما نقله[2] عن ابن سعيد: «وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحاري فيها معدومة. ومما اختصّت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة:

(١) تاريخ إسبانية الإسلامية، لسان الدين بن الخطيب، ص ٤.
(٢) نفح الطيب، للمقرّي: ١/٢٠٥.

لاحت قراها بين خضرةِ أيكها
كالدرُّ بين زبرجدٍ مكنونِ

وقد أفاض الشعراء في وصف الأندلس ومباهجها، من ذلك ما قاله[1] ابن سفر المريني:

أنهارها فضّةٌ، والمسك تربتُها
والخزّ روضتها، والدرُّ حصباءُ
وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به
مَن لا يرقّ، وتبدو منه أهواءُ
ليس النسيم الذي يهفو بها سَحَراً
ولا انتشار لآلي الطلّ أنداءُ

٢ - فتح الأندلس:

كان ملك الأندلس، قبل الفتح الإسلامي، للقوط الغربيين الذين سيطروا على كافّة أنحاء شبه الجزيرة بعد محاولات شاقّة كثيرة، وملكُهم لعهد الفتح كان يسمى لُذَريق، وكان صاحب سبتة في ذلك الوقت الملك يُليان الذي يدين بطاعتهم وبملّتهم، وموسى بن نصير أمير المغرب إذ ذاك عامل على إفريقيا من قِبَل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى، ودوّخ أقطاره وأثخن في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزُّقاق واستنزل يُليان لطاعة الإسلام، وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي والياً بطنجة، وكان يُليان

(١) نفح الطيب: ١/٢٠٩.

ينقم على لُذَريق ملك القوط لعهده بالأندلس. . . ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلّهم على عورة فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصة، فانتهزها لوقته وأجاز البحر سنة ٩٢ للهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، فصيّرهم عسكرين: أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح، فسُمّي جبل طارق، والآخر على طريف بن مالك النخعي، ونزل بمكان مدينة طريف، فسُمّي به. . . وبلغ الخبر إلى لُذَريق. . . في زهاء أربعين ألفاً، وزحفوا إليه، فالتقوا بفحص شَريش فهزمه الله»[1].

وتوغَل المسلمون بعد ذلك في عمق البلاد، واتخذوا لهم المواقع والحصون، ثم استقروا في المدن والقرى بعد أن قُضِيَ على نفوذ القوط تماماً. ثم انصرف موسى بن نصير، بعد أن تلقّى أمراً من الخليفة الوليد بن عبد الملك، عائداً إلى القيروان ومنها إلى دمشق، وكان عيّن ابنه عبد العزيز أميراً في قرطبة، وقد قتل ابنه هذا لاحقاً[2] وتولّى من بعده أيوب بن حبيب اللخمي، وتوالى عمّال الخليفة في الأندلس بمراسيم كانت تصدر عن الخليفة الأموي في دمشق وبلغت عدّة أولئك العمّال عشرين عاملاً من لدن أوّلهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسف الفهري، ثم انتقلت الخلافة في المشرق إلى بني العباس، فاستطاع صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية أن يجدّد ملك بني اميّة في الأندلس بعد أن فرّ من الشام عن طريق مصر إلى المغرب ومنها دخل الأندلس.

---

(١) نفح الطيب: ١/٢٣٢، وكذلك ١/٢٥٠ وما بعدها.

(٢) نفح الطيب: ١/٢٣٤.

٣ ـ الحالة السياسية:

خضعت إسبانيا حتى أوائل القرن الثامن الميلادي لحكم القوط الغربيين وكانت عاصمتهم طليطلة. وقد بَدَت هذه البلاد في تلك الفترة، كوحدة سياسية قوية، لكنها ما لبثت أن بدأت بالضعف والتفكّك عندما اشتدّ الصراع بين الأشراف ورجال الدين، وحين ساءت أحوال الطبقات الدّنيا من الشعب، لِمَا كانوا يحملونه من الضرائب الباهظة وغير ذلك من صور الاستغلال البشع. ومن جهة أخرى، كان أسياد البلاد قد أكثروا من استخدام العبيد في الجيش، فكان ذلك من عوامل ضعف الدولة، لأن العبيد تحوّلوا إلى عناصر ناقمة تتحيّن الفرصة للقضاء على الحكّام رموز الظلم والجور.

وباختصار، كانت الأحوال في شبه جزيرة إيبريا، إبّان القرن الأول الهجري، تتمثّل في الضعف والانحلال على كافّة الأصعدة، وصراعات على السلطة دموية في كثير من الأحيان، فضلاً عن التخلّف والجهل العامّ والأمراض المتفشية تحصد الناس، والحكّام، إزاء كل ذلك، لا يستطيعون شيئاً. وفي هذه الأثناء، كان المغرب يخضع للحكم الإسلامي، ثم كان الفتح العربي لبلاد الأندلس كما أسلفنا.

أ ـ عصر الولاة:

استغرق هذا العصر مدة ستة وأربعين عاماً هجرياً، تسلّم أمر الأندلس خلالها ثمانية[١] عشر والياً، أولهم عبد العزيز بن موسى بن

---

(١) ذكرنا في ص ٧ أن عددتهم عشرون والياً وذلك إذا اعتبرنا أن موسى بن نصير وطارق بن زياد منهم.

نصير، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، الذي تغلّب عليه عبد الرحمن الداخل، وأقام إمارة قرطبة المستقلة.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فكان قد نهض بعبء كبير في مواصلة الفتح، في جميع الاتجاهات، وذلك بعد عودة والده موسى بن نصير بصحبة طارق بن زياد إلى دار الخلافة في دمشق.

وتولّى أمر الأندلس بعد عبد العزيز سبعة عشر والياً، وكانوا جميعاً مرتبطين بالخليفة في دمشق، فهو كان يعيِّنهم مباشرة أو عن طريق عامِله في المغرب، ومن المؤسف أن هؤلاء الولاة كانوا يتنافسون على الحكم، مما أفسح في المجال أمام الفتن والاضطرابات، فاستيقظت معها العصبيات القبلية، ومع ذلك استمر المسلمون في التوغّل داخل البلاد حتى وصلوا إلى فرنسا واحتلّوا مدينتي «تور» و«بواتيه»، ولكنهم تراجعوا سريعاً لأنهم لم يتمكّنوا من التكيّف مع الأحوال الطبيعية في جبال «البرانس».

ب ـ إمارة قرطبة:

استولى العباسيون على السلطة في المشرق سنة ١٣٢ هـ، وقُضِي بذلك على الدولة الأموية وقد لاحق بنو العباس الأُسرة الأمويّة، ونكلوا بأفرادها ولكن أميراً واحداً(١) من البيت المرواني استطاع أن يصل إلى الأندلس، كما أشرنا، سنة ١٣٨ هـ ليؤسِّس دولة أموية هناك.

---

(١) هو عبد الرحمن الداخل الملقّب بصقر قريش.

وكان ذلك خلال خلافة أبي جعفر المنصور العباسي في بغداد. وقد تمكّن عبد الرحمن، بدهائه وقوة شخصيته، وبمساعدة بعض الأنصار من اليمنية، أن يوحّد البلاد، ويقضي على النزاعات كافّة، وأزاح آخر الولاة يوسف الفهري، وبذلك استقرّ مُلكه فاستقلّ عن الخلافة العباسية وقطع الدعوة لها ولم تنجح كل المحاولات التي بذلها العباسيون للقضاء على نفوذه.

توالى على حكم إمارة قرطبة من بعد عبد الرحمن ستّة من أبنائه وأحفاده انتهى حكمهم سنة ٣٠٠ للهجرة، وتميّزت عهودهم المختلفة بالأمن والاستقرار، وبعد ذلك انصرفوا إلى الأمور الأخرى، حيث شهدت الإمارة نهضة سياسية وعمرانية واقتصادية، كما شهدت تلك المرحلة نشاطاً عسكرياً ملحوظاً، إذ أخمدت ثورات الإفرنج وفتحت عدّة حصون. ومن حُسْن سياسة عبد الرحمن أنه عقد معاهدة مع إمبراطور القسطنطينية، ومع مقاطعة نافارا الواقعة شمالي جبال «البرانس»، فصارت هذه المقاطعة منطقة عازلة بينه وبين بلاد الإفرنج.

جـ ـ خلافة قرطبة: ٣٠٠ هـ ـ ٤٢٢ هـ:

كانت هيبة الدولة قد ضعفت قليلاً قبل مجيء عبد الرحمن الناصر، فكثرت الثورات وتفاقمت العصبيات وازداد عدد المنشقّين والانفصاليين، فتسلّم عبد الرحمن بن محمد الملقّب بالناصر مقاليد الأمور سنة ٣٠٠ هـ، ولم يلبث أن أعلن نفسه أميراً للمؤمنين سنة ٣١٦ هـ، وهكذا صار هنالك خلافتان: خلافة عباسية ضعيفة في بغداد، وخلافة أموية في قرطبة. وقد واجه الناصر، عند تولّيه الحكم

صعوبات في تثبيت الأمن، وإعادة الهدوء إلى البلاد، وقد وصف لسان الدين بن الخطيب الأحوال العامّة في تلك الفترة بقوله[1]:

«تولّى الملك عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين، والأرض جمرة تحتدم ونار تضطرم، وشقاق ونفاق، فأخمد نيرانها، وسكّن زلازلها، وافتتحها عَوْداً كما افتتحها بدءاً سَمِيّه عبد الرحمن بن معاوية».

وتولّى الخلافة من بعد الناصر، ابنه الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ هـ - ٣٦٦ هـ)، وكان على سِيرة أبيه، ثم ابنه هشام وتسلّم الخلافة وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فغلب عليه الحاجب[2] المنصور، ولم يبقَ له - أي للخليفة - من الخلافة إلّا الاسم، لأن الحاجب استقلّ بالمُلْك ومنعه من التصرّف. وكان المنصور هذا كثير الغزوات، مُحِباً للعلم مكرّماً لأهله، من أهم شعرائه: عبادة بن ماء السماء، والرمادي، وابن درّاج القسطلي. مات المنصور سنة ٣٩٢ هـ، وقتل ابنه عبد الرحمن فعادت السلطة بعد ذلك إلى الأمويين ولكن خلافتهم لم تعمّر طويلاً وانتهت بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ وكان آخر خلفائهم في قرطبة.

د - ملوك الطوائف: ٤٠٠ هـ - ٥٣٦ هـ:

سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ، ولكن عصر الطوائف

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٢٩.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك المعافري، اتصل بالحكم ووُلّي له أعمالاً من قضاء وأمانة، ثم انتظم في أصحاب السلطان. وبعد مهلك الحكم، قاد حملة لتأديب الطاغية في جليقية سنة ٣٦٦ هـ فنال منه. ثم قويت شوكته بعد ذلك حتى حجر على الخليفة واستبدّ بالسلطة.

كان قد بدأ فعلاً بعد وفاة المنصور بن أبي عامر، فقام نزاع بين أمراء بني أمية على الخلافة مما أدى إلى ضعف الدولة، وتجرّأ الطامعون من العرب والموالي والبربر وغيرهم ليستقلّ كل رئيس بمقاطعة أو بمدينة. كانت النتيجة أن نشأت دول كثيرة منها:

دولة بني هـود: في سرقسطة وهي دولة عربية.

دولة بني رزين: وهم من البربر، وحاضرتها «شنتمرية الشرق».

دولة بني حمّود: وكان حكم الحمّوديين ما بين «قرطبة» و«مالقة» و«الجزيرة الخضراء».

دولة بني عامر: وعاصمتها «بلنسية».

دولة بني الأفطس: وكانوا من البربر، وحاضرتهم «بطليوس».

دولة بني عبّاد: في إشبيلية، وهذه الدولة من أكثر الدول كرماً وفضلاً وأدباً، وأعظم ملوكها المعتمد بن عبّاد الذي عُرِفَ بذكائه، وأدبه وحبّه للعلم.

دولة بني جهور: قامت في قرطبة، بعد سقوط الخلافة الأموية، أول ملوكهم أبو الحزم بن جهور، وكان ابن زيدون شاعره ووزيره.

دولة بني ذي النون: في طليطلة، وهم من بربر المغرب.

تميّز عصر ملوك الطوائف بالضعف، أمام هجمات الأعداء المتكرّرة، وهم منشغلون عن العدو، في اللهو والملذّات حتى تفاقم

الخطر، فطلب ملوك الطوائف العَوْن من أمير المغرب يوسف بن تاشفين فلبّى النداء وأرسل جيشاً إلى الأندلس لنصرة الإسلام فيها حيث التقى بجيش «ألفونسو» السادس ملك النصارى، وهزمه هزيمةً شنعاء في معركة الزلّاقة في ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ، وعاد يوسف بعد ذلك إلى المغرب وترك جزءاً من الجيش في الأندلس لمحاربة العدو. ولكن ملوك الطوائف عادوا إلى سابق عهدهم في التصارع والتناحر، فعاد يوسف بن تاشفين للمرة الثانية.

عاد هذه المرة ليخلع كل ملوك الطوائف الواحد بعد الآخر، وبذلك أحكم سيطرته على كل بلاد الأندلس لتؤلّف مع المغرب دولةً واحدةً عاصمتها مراكش.

هـ - دولة المرابطين: ٤٩٥ هـ - ٥٥٥ هـ:

نشأت هذه الدولة في المغرب، ومؤسّسها يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي أعلن حركة إصلاحية دينية واستعان بعبد الله بن ياسين الجزولي ليقوم بالدعوة في بلاد صنهاجة، ومنها انطلق إلى الصحراء مع جماعته، حيث كانوا يتعبّدون بعيداً عن الناس حتى كثر عددهم وآلت قيادتهم فيما بعد إلى يوسف بن تاشفين الذي وحّد المغرب بجيشه ونقل عاصمة ملكه من فاس إلى مراكش. إذاً، قامت هذه الدولة على العلم والدين، وكان هدفها الإصلاح ونشر الفضائل على أساس الشريعة الإسلامية وانطلاقاً من هنا، لبّى يوسف بن تاشفين نداء الأندلسيين ونصرهم مرتين، ومن اللافت للانتباه أن ابن تاشفين قد أعاد البلاد إلى سلطة الخلافة العباسية في بغداد، ولكنه

سرعان ما توفي سنة ٥٠٠ هـ، وخلفه ابنه علي الذي سار على طريقة والده في الغزو والجهاد، ولكن الضعف بدأ يتسرّب إلى دولته في أواخر أيامه، فثار أهل إشبيلية سنة ٥٤٠ هـ وخرجوا عن طاعة المرابطين، فعادت البلاد بذلك إلى ما كانت عليه.

و ـ دولة الموحّدين: ٥٢٤ هـ ـ ٦٦٧ هـ:

تأسّست هذه الدولة في المغرب على يد محمد بن تومرت وهو من قبائل المصامدة، أما المؤسّس الفعلي، فهو عبد المؤمن بن علي الذي قضى على المرابطين وعلى بني زيري في المغرب، وعبر البحر بجيشه إلى الأندلس تلبية لدعوات الأندلسيين سنة ٥٥٦ هـ، وأبلى بلاءً حسناً.

خلف عبدَ المؤمن ابنُه يوسف أبو يعقوب، فسار على خُطى والده وغزا الأندلس مرتين لقتال الإفرنج، وتابعه ابنه يعقوب أبو يوسف المنصور حتى بلغت الدولة في عهده أوجها، وللمنصور مواقف عظيمة ومشهودة في الحرب والجهاد والتشييد. خلفه ابنه الناصر محمد، وفي أيامه بدأ النصارى حروبهم للاستيلاء على ممالك الأندلس. وكانت معركة العُقاب التي تمكّن فيها النصارى مقدمة لبدء الهجمات المتوالية، التي أسفرت عن سقوط حواضر الأندلس الواحدة تلو الأخرى، وكان سقوط إشبيلية سنة ١٢٣٩ رومية، وهي آخر معقل للموحدين.

أما الجانب الحضاري، فيتجلّى في اهتمام ملوك الموحدين بالعلوم والآداب، وقد شجّعوا الشعراء والوشّاحين. ومن أهم شعراء

هذه الدولة: محمد بن أبي العباس السمعاني، وأبو بكر بن زهر.

ي ـ دولة بني الأحمر: ٦٣٥ هـ ـ ٨٩٨ هـ:

انطلق بنو الأحمر من حصن أرغونة، وتوسّعوا حتى شملت دولتهم عدّة مدن منها: مالقة وجيّان وغرناطة التي اتخذوها عاصمة لهم. توالى على حكم هذه الدولة عشرون ملكاً من أحفاد محمد بن يوسف بن نصر، مؤسّسها، وكان منهم سلاطين أقوياء، وقفوا في وجه النصارى وحاربوهم، ولكن الصراع على الحكم، كان من أهم أسباب سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ رومية بخروج آخر ملوكها أبي عبد الله الشقيّ باكياً. وبزوال هذه المملكة انتهى الوجود الإسلامي في شبه جزيرة إيبريا، الذي استمر لما يزيد على ثمانية قرون.

ك ـ نظام الحكم في الأندلس:

كان الخليفة، أو الأمير، في الأندلس هو الحاكم المطلق حيث يرجع إليه في كافّة الشؤون، ولهذا السبب كانت تستقيم الأمور إذا كان على رأس السلطة رجل قوي حازم، وإذا حدث ووصل إلى السلطة حاكم ضعيف، فسرعان ما تندلع الاضطرابات وتعمّ الفوضى، وفي الحالين كان ينعكس الأمر في مختلف الميادين: فمع الاستقرار ينمو العلم والأدب وتنشط الحركة العمرانية، ومع الفوضى تراجع وانحسار على كل صعيد. إلّا أننا نلاحظ أن بلاد الأندلس قد شهدت نشاطاً باهراً في الميادين الحضارية كافّة على الرغم من فترات الفتن والفوضى والصراعات التي كانت تعصف بالأندلس، وخصوصاً إبان الحكم الأموي، ولعلّ ما يفسّر ذلك وجود حكّام

أقوياء حكموا فترات زمنية طويلة، وفّرت الأجواء الملائمة من الاستقرار لازدهار مميز، من هؤلاء عبد الرحمن الداخل، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر، من هؤلاء مَن دام حكمه لخمسين سنة(١) مما أتاح للبلاد استقراراً وازدهاراً حضارياً شاملاً.

أما الإدارة، فكانت منظّمة، وعلى رأسها كبير الوزراء الذي عُرِفَ بالحاجب، والحجابة رتبة عالية تنافس عليها الوزراء، والوزراء والحجّاب، كانوا يُختارون من ذوي العلم والأدب المُقَرّبين إلى الخليفة أو الملك. ومما يؤكد ما نذهب إليه، أن الحاجب المنصور بن أبي عامر تفرّد بمقاليد الحكم بعد أن عزل الخليفة(٢) وأبعده عن شؤون الحكم والسلطة.

وعرفت الإدارة عندهم استقلالية لا تداخل فيما بينها، وكلها بإشراف الحاجب، من هذه الإدارات:

ـ الكتابة:

وكانت على نوعين:

كتابة الرسائل: ويتولّاها أديب، وكثيراً ما كان يتعرّض لانتقادات لاذعة إذا أخطأ أو قصّر.

والنوع الثاني يتمثّل في كاتب الزّمام: وهو كاتب حسابات.

---

(١) عبد الرحمن الناصر.

(٢) نفح الطيب: ٢١٦/١.

- الخراج:

ويقوم على هذه الإدارة موظف كبير أعلى منزلة من الوزير، وإذا ظهر عليه ثراء غير مشروع، نُكِب وصُودِر.

- القضاء:

تعتبر وظيفة القاضي الأهم نظراً لعلاقتها بالدين، وكانت سلطة القاضي تسمح له أن يستدعي الخليفة والأمراء لسماع كلامهم في أيّ أمر. ويشترط للقاضي أن يكون عالماً في أمور الشريعة ومن ذوي السِّيرة الحسنة.

- الشرطة:

تمتّع صاحب الشرطة في بعض الفترات، بصلاحيات كبيرة، كقتل مَن يستحقّ دون العودة إلى السلطان، ويلحق بخطّة الشرطة الطوّافون في الليل.

- الحسبة:

وعلى رأسها المحتسب ومهامه: مراقبة الأسعار والموازين وضبط الأسواق(١).

أما علاقة الناس بحكّامهم، فكانت تخضع للظروف، وباختصار، إذا قصّر الحاكم في إقامة الحدود أخرجوه(٢) من بلدهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضاة والولاة إذا جاروا ولم يعدلوا.

---

(١) نفح الطيب: ١/٢١٧.
(٢) نفح الطيب: ١/٢٢٠.

٤ ـ الحالة الاجتماعية:

أ ـ عناصر الشعب:

تألّف الشعب الأندلسي من خمسة عناصر:

العرب، والبربر، والموالي، والمولّدون، وأهل الذمّة من نصارى ويهود.

ـ العــرب:

وكانوا يؤلّفون الطبقة الأرستقراطية في البلاد، منهم الحكّام والأمراء، وكبار الموظفين، وبحكم ذلك كانوا ينظرون إلى غيرهم من الأجناس والفئات نظرةً فيها شيء من الازدراء مما حمل البربر على الانتقاض والثورة أكثر من مرة[١]، عِلماً بأن العرب كانوا قلّة بالمقارنة مع غيرهم، ولكنهم تزايدوا بعد الفتح.

ويدخل في ذلك اليهود من أهالي البلاد. وقد عانى أهل الذمّة من عقدة النقص فشعروا بأنهم أقلّ شأناً من غيرهم وزعموا بأنهم أحقّ من غيرهم بحكم بلادهم. ويضاف إلى ما تقدم من الأجناس، عنصر الصقالبة، وهم أسرى الحروب من شتّى البلاد، استخدمهم عبد الرحمن الناصر وأدخلهم في جيشه لحماية مُلكه، وقد شكّل هؤلاء مع المولّدين وأهل الذمّة العدد الأكبر من سكان الأندلس. إلّا أنهم، ما لبثوا أن اندمجوا جميعاً واختلطوا ليؤلّفوا مجتمعاً متميّزاً سرَت في عناصره دماء مختلفة، وأفرز ذلك الاختلاط عقلية جديدة، برزت في نواحي الفكر والأدب والفن، ولكلٍّ من هذه النواحي معالم

(١) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص ١٣٣.

مميزة تضمّ خصائص الشرقيين، وميولهم العاطفية إلى خصائص الأوروبيين وميولهم العقلية.

- البربر:

وهم من سكان شمالي إفريقيا، الذين أسلموا وساهموا في فتح الأندلس مساهمة عظيمة، أقاموا في الأندلس واندمجوا مع غيرهم من المجموعات البشرية وتعلّموا العربية، وتفقّهوا بالإسلام.

- الموالي:

وهم من موالي بني أميّة، وكان لهم فضل كبير في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل.

- المولّدون:

يشكّلون الجيل الجديد، الذي نشأ بعد الفتح من علاقات المصاهرة والزواج بين فئات الناس المختلفة، وقد زال هذا الاسم عنهم في القرن الثالث حيث صار الكل يعرفون بالأندلسيين كشعب له مزاياه وصفاته الخاصّة ولغته أيضاً.

- أهل الذمّة:

هم الإسبان الذين بقوا على نصرانيتهم، وعاشوا تحت الحكم الإسلامي واستحقّوا الحماية لقاء جزية يدفعونها حسب الشريعة الإسلامية.

ب - العادات والتقاليد:

إن الأندلسيين شعب نظيف وأنيق بل «أشدّ خلق الله اعتناءً

بنظافة ما يلبسون وما يفرشون»[١]، كذلك هم أهل احتياط واقتصاد وتدبير، وليس ذلك من البخل، «ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظائمه»[٢]. ومن مظاهر مروءتهم وشهامتهم أنهم كانوا يمقتون المتسوّلين ولا يعطونهم «فلا تجد بالأندلس سائلاً إلاّ أن يكون صاحب عذر»[٣]، وإذا دلّ ذلك على شيء، فإنه يدلّ على الحيوية والنشاط وحبّ العمل فضلاً عن الإباء وعزّة النفس وعلوّ الهمّة.

ـ الأزيــاء:

الغالب على أهل الأندلس ترك العمائم، خصوصاً في شرقي البلاد، أما في الغرب، فكان القضاة والفقهاء يضعـون العمائم، أما سلاطينهم وأجنادهم، فكثيراً ما تزيّـوا بزيّ النصارى المجاورين لهم[٤]. ومن أهم هذه الأزياء الطيلسان، «ولا تجد في خواصّ الأندلس وأكثر عوامّهم مَن يمشي دون طيلسان إلاّ أنه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظّمون، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصُّفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمّم البتّة، والذؤابة لا يرخيها إلاّ العالِم»[٥]. أما في الأحزان فكان لهم زيّ خاصّ، أو لون مميّز وهو الأبيض. يقول في ذلك ابن برد الأصغر:

---

(١) نفح الطيب: ١/٢٢٣.

(٢) نفح الطيب: ١/٢٢٣.

(٣) نفح الطيب: ١/٢٢٠.

(٤) نفح الطيب: ١/٢٢٢.

(٥) نفح الطيب: ١/٢٢٣. الطيلسان: ثوب موصول بغطاء للرأس.

يقـولـون: البيـاض لبـاس حــزن
بـأنـدلس، فقلت: من الصــواب
ألم تــرني لبست بيـاض شعــري
لأني قــد حــزنت على الشبــاب؟

- النســاء:

كان منهنّ الحرائر، ومنهمّ الإماء والسّراري، ويغلب على نساء الأندلس الجهل والأمّيّة، إلاّ أن بعض الجواري كنّ يُحسِنّ الغناء والموسيقى وذلك بفضل تعليم أسيادهنّ، وإعدادهنّ للبيع بأسعار عالية.

والأزياء النسائية، كان يغلب عليها الأناقة والبذخ، وقد اعتنين بأشكال الـزينة والحليّ، ولم تتخـلّ المرأة المسلمـة الحرّة عن الحجاب، على خلاف الإماء اللواتي لم يتقيدن بذلك.

أما في الحياة العامّة، فقد لعبت المرأة دوراً كبيراً، ومميزاً في المجالات المختلفة: في السياسة والعلوم(١) والآداب. فكان يجتمع في البيت الـواحـد، من بيـوت الـطبقـة العليـا، عـدد كبيـر من الحرائر والإماء، لذلك شاع الحسد والحقد في أوساطهنّ، وانتقل الصـراع إلى أولادهنّ فشاعت الكـراهيـة والبغضـاء بين الأخـوة وتصارعوا فيما بينهم على النفوذ والسلطة، والأخطر من ذلك أن بعض النساء الإسبانيات كُنّ يُظهِرن الإسلام لتحقيق مآرب معينة

(١) انظر دور المرأة في الحركة العلمية لاحقاً.

لخدمة الجنس الإسباني، من ذلك: التجسّس على ذوي السلطان من الأمراء والوزراء أو الملوك، وقد ساعدهنّ على ذلك الدور ضعف بعض الحكّام أمام إغراءات النساء، فيخضع بعضهم لرغبة حَظِيّته ويمضي لها ما تشاء.

٥ ـ الحالة الاقتصادية:

قد سبق وأشرنا إلى صفة جزيرة الأندلس من الناحية الجغرافية، وعلمنا أنها بلاد ذات طبيعة غنيّة بمصادر المياه، وأرضها خصبة، وفيها من المعادن الأصناف المختلفة، وقد نقل المقّري عن ابن حوقل في وصف الأندلس عندما زارها في المائة الرابعة ما نصّه[1]: «وأما جزيرة الأندلس، فجزيرة كبيرة. . . تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسّعة في الأحوال من الرقيق الفاخر، والخصب الظاهر، إلى أسباب التملّك الفاشية فيها، ولما هي به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم مهينهم وأرباب صنائعهم لقلّة مؤونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم. ومما يدلّ بالقليل منه على كثيره أن سكّة دار ضربه على الدراهم والدنانير، دخلها في كل سنة مائتا ألف دينار، وصرف الدينار سبعة عشر درهماً، هذا إلى صدقات البلد، وجباياته، وخراجاته، وأعشاره، وضماناته، والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك».

وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت في مدة

---

(١) نفح الطيب: ٢١١/١.

عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً، ثم من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستّون ألف دينار[١].

ومما يُذكَر عن الثروات الهائلة التي أصابها الفاتحون المسلمون ما وجدوه في طليطلة من التيجان الذهبية والسيوف الملكية والدّر والياقوت وأواني الذهب والفضة[٢].

إذاً، بلاد الأندلس، كانت أرض خير ونعمة، وذات جمال طبيعي واعتدال مناخي، ما سمح لإقامة حواضر عامرة تنمو فيها حضارة راقية زاهرة، وعاش الناس في رغد من العيش وبحبوحة واكتفاء، أما العظماء من الملوك والأمراء فعاشوا في القصور والمدن الملكية، واقتنوا الجواري الحِسان، والغلمان من كل صنف ولون، وتمتعوا بشتى أصناف الملذّات والملاهي والطيبات، من المآكل، والمشارب والسّماع وغير ذلك. ومن الجدير بالذكر أنهم تعلّقوا بالغناء والموسيقى، وقد وفد في عهد عبد الرحمن الداخل مغنّون ومغنيات من الشرق مثل «فضل» المدنية، و«علم» و«قلم» الأندلسية التي أخذت الغناء عن مغنّي المدينة وعادت إلى الأندلس، وقد أحاطهنّ الداخل بعنايته وأسّس لهنّ داراً بقصره تُعرَف بدار المدنيّات[٣]. ومن المغنّين «زرياب» الذي قَدِمَ من المشرق وأسّس مدرسة الغناء والموسيقى والرقص في قرطبة، وانتقل فنّه إلى

---

(١) نفح الطيب: ٢١١/١.
(٢) نفح الطيب: ٢٨٩/١.
(٣) الأدب العربي في الأندلس، عتيق، ص ١٤٦.

تلاميذه، وأبنائه، ومن جواربه «متعة» التي أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط لشدّة شغفه بها. وهنالك مَن اشتغل بصناعة الألحان والتأليف فيها، أمثال أبي بكر بن باجة، ويحيى المرسي الذي وضع كتاباً سمّاه «الأغاني الأندلسية».

وتميّز من مدن الأندلس إشبيلية، عن غيرها من المدن، حتى قيل إذا أُريد بيع أدوات موسيقية فتُباع في إشبيلية، وإذا أُريد بيع كتب فتنقل إلى قرطبة نظراً لمكانتها العلمية. على كل حال، يدل اهتمام الأندلسيين بالغناء على رقّة عواطفهم وجمال بلادهم، ورغد عيشهم وهدوّ بالهم.

أ ـ العمـــران:

كما ينمو الذوق والفن في ظلّ الهدوء والثّراء، فإن حركة البناء والتشييد تزدهر هي أيضاً إذا توافرت لها الشروط المذكورة نفسها. وبالفعل تهيأ لها من الظروف ما جعلها تنطلق بقوة، فاهتمّ أهل الحكم في الأندلس، وفي مختلف العصور، بالبناء، ومما يذكر الجامع الكبير والقصر في قرطبة، بناهما عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ، أما هشام بن عبد الرحمن المتوفّى سنة ١٨٠ هـ، فقد جدّد بناء القنطرة في قرطبة، وأتمّ بناء الجامع الذي شرع فيه أبوه.

وقد شهدت بلاد الأندلس، في عهد عبد الرحمن الأوسط[١]

---

(١) الأوسط هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، أما الأول فهو عبد الرحمن الداخل، والثالث هو عبد الرحمن الناصر.

المتوفّى سنة ٢٣٨ هـ، نهضة عمرانية واسعة، فاتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال، ونظّم شوارع قرطبة كما أصلح الطرق وبنى المساجد في أكثر المدن، وجعل بجانب كل مسجد مدرسة ومستشفى، وزاد في جامع قرطبة رواقين. ولم تتوقف حركة البناء من بعده، فاهتمّ بها كل الحكّام وفي العصور اللاحقة كافّة، وخير ما يشهد على ذلك قصر الحمراء في غرناطة.

٦ ـ الحالة العلمية:

يرتبط التقدّم العلمي بالأحوال العامّة في البلاد، وكذلك الآداب والفنون وسائر النشاطات الأخرى، فهي تنمو وتزدهر في ظلّ الحرية الفردية والأمن، والاستقرار الذي يوفّر للأفراد الحدّ الأدنى من مقوّمات البحث والإنتاج، وقد توافر للأندلسيين، وفي فترات مختلفة، خصوصاً في العهد الأموي أو عصر إمارة قرطبة، وقد توالى ملوك استطاعوا أن يسيروا بالبلاد نحو نهضة شاملة بعد أن رسّخوا دعائم الحكم وقضوا على الفتن والثورات، ومما يلفت الانتباه أن أولئك الحكّام شاركوا مشاركة فاعلة في بعض نواحي النشاطات العلمية أو الأدبية، فعبد الرحمن الداخل، كان فصيحاً بليغاً مطبوع الشعر، وكذلك الحكم بن هشام الذي قرّب العلماء والفقهاء والأدباء، ويتبعهما عبد الرحمن الأوسط الذي عُرِفَ بتشجيعه للعلوم والآداب، ولا غرابة في ذلك إذ إنه هو نفسه كان شاعراً، فقيهاً بأمور الدين، مثقفاً. وقد ظهر في عهده عدد من النوابغ منهم العالِم الكيميائي الشهير عباس بن فرناس، الذي حاول الطيران ولم ينجح.

كما عُرِفَ عبد الرحمن هذا بتشجيعه للغناء والموسيقى ومما يثبت ذلك أنه كان في استقبال زرياب المغنّي عندما وصل إلى الأندلس قادماً من المشرق.

وبما أن الأجواء كانت مؤاتية كما وصفنا، فقد وجد الشعر طريقاً سالكة ممهّدة لينطلق انطلاقة كبرى، شارك فيها جمٌّ كثير من الناس على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم، فصدر عنهم شعر رقيق في كافّة الأغراض والفنون، فعبّروا عن الواقع، وصوّروا المشاعر أصدق تصوير، كما نقلوا جمال الطبيعة ممزوجاً بعواطفهم التي كانت تعلو حرارتها وتنخفض تبعاً للأحوال والمواقف والظروف المختلفة. إذا تذكّر الشاعر موطنه وأهله في المشرق تفجّرت قرائحه بفيض من المشاعر الشجيّة، من ذلك ما قاله عبد الرحمن الداخل عندما شاهد نخلة في الرصافة[1]:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وها هو نفسه، يقول شعراً، فيه من معاني القوة، ما يعبّر عن النفس الأبيّة، والمعنويات المرتفعة التي ترتبط بما آلت إليه الأمور، فالظروف تغيّرت، وحال اليوم غير حال الأمس، والذي كان يناجي النخلة ويقاسمها الهمّ والحزن، تراه الآن، وقد وطّد دعائم ملكه،

---

(١) الرصافة: مدينة بناها عبد الرحمن الداخل بالقرب من قرطبة.

وقضى على خصومه، وتجاوز الأخطار، ومهّد لمُلْك متين، فيقول[1]:

فبزّ مُلكاً وشاد عزّاً ومنبراً للخطاب فصلاً
فجاز قفراً وشقّ بحراً مُساميا لجّة ومحلا

وللحكم بن هشام شعر جيد قاله[2] في التفاخر بالقضاء على خصومه:

ولما تساقينا سِجال حروبنا
سقيتهم سُمّاً من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفّيتهم صاع قرضهم
فوافوا منايا قُدِّرت ومصارعا

ومن غزله:

ظلّ من فرط حبّه مملوكاً
ولقد كان قبل ذلك مليكا
تركته جآذر القصر صبّاً
مستهاماً على الصعيد تريكا

وكذلك من غزله[3]:

قُضُبٌ من البانِ ماست فوق كثبانِ
ولّيْن عنّي وقد أزمعنَ هجراني

---

(١) العقد الفريد: ٤/٤٨٩.
(٢) العقد الفريد: ٤/٤٩٢.
(٣) نفح الطيب: ١/٣٤٢.

ومن شعر[1] الأمير عبد الله بن محمد:

يـا مهجـة المشتـاق مـا أوجعـك
ويـا أسيـر الحبّ مـا أخضعـك
ويـا رسـول العين من لـحـظهـا
بـالـردّ والتبليـغ مـا أسـرعـك

ومن الشعـراء الذين ظهـروا في إمـارة قـرطبـة: العتبي، وعباس بن فرناس، وابن سبعين العكّي، وهاشم بن عبد العزيز، وعبد الرحمن بن الشّمر، وابن المثنى، وابن عبد ربّه.

عرف عهد الناصر، نهضة بارزة في العلوم والآداب، ومن مآثر الناصر في تشجيع العلم، أنه كان يرسل مَن يشتري الكتب النادرة حيثما وُجِدَت، لتحضر إلى قرطبة، وكان يجزل العطاء للعلماء والأدباء والشعراء، فصارت قرطبة في عهده مقصد طالبي العلم والشهرة، فجاءها طلاب العلم من أوروبا، وأمّها من المشرق أيضاً العلماء في كافّة الفنون وخصوصاً علماء اللغة والنحو والحديث. أما في الشعر فقد برزت طائفة من أهمهم أحمد بن عبد ربّه صاحب العقد، وجعفر بن عثمان المصحفي[2]، والرمـادي، ويوسف بن هارون، ومنذر بن سعيد البلوطي، هذا في قرطبة. وفي إشبيلية اشتهر محمد بن هانىء.

---

(١) نفح الطيب: ٣٥٢/١.

(٢) المصحفي: الحاجب، استوزره المستنصر، واستعطفه المنصور بن أبي عامر، وبعد وفاة الحكم حبسه ابن أبي عامر حتى مات في حبسه. وكان له شعر جيد. نفح الطيب: ٥٩٢/١.

وشهدت العصور التالية نهضة شاملة، لا مثيل لها، في العلوم والآداب، فيحدّثنا المقرّي عن الحكم المستنصر بن الناصر فيقول: «وكان مُحِبّاً للعلوم، مكرّماً لأهلها، جمّاعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله»[1]. ثم ينقل عن ابن حزم بأن «عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرساً، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة، جلبت إليها بضائعه من كل قطر. وفد على أبيه أبو علي القالي[2] صاحب كتاب «الأمالي» من بغداد فأكرم مثواه، وأورث أهل الأندلس علمه. وكان يبعث في طلب الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجّار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها... واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده»[3].

أما المنصور بن أبي عامر، فقد استمال الشعراء والأدباء، وشجّع أهل العلم وأكرمهم، ولكنه تشدّد مع المتفلسفين المُخالفين للشريعة الإسلامية، وقد أمر بإحراق الكثير من كتب الفلاسفة والدهرية. ومن شعرائه المقرّبين عُبادة بن ماء السماء المتوفّى سنة ٤٢٢ هـ والذي اشتهر بالموشّحات، ومن شعرائه أيضاً الرمادي،

(١) نفح الطيب: ١/ ٣٨٥.

(٢) القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم، ولد في منازجرد بديار بكر سنة ٢٨٨ هـ، ورحل إلى العراق فاستزاد علماً، ثم رحل إلى الأندلس فأكرمه الناصر، واشتهر هناك وأورثهم علمه. له بضعة مؤلّفات أهمها الأمالي. توفي بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ. سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٤٥.

(٣) نفح الطيب: ١/ ٣٨٥.

وابن درّاج القسطلي.

ونتقل بعد ذلك إلى العهود التالية وهي: عهد ملوك الطوائف، والمرابطين والموحدين.

فالطوائف، كانوا، بمعظمهم يُجيدون الشعر، وأشهر ملوكهم المعتمد بن عبّاد(1). ومن الملاحظ في هذا العصر أنّ مراكز العلم والثقافة توزّعت على المدن والحواضر والعواصم بحسب الخريطة السياسية لتوزّع الملوك وذوي الشأن، خصوصاً وأن الملوك، قد أحاطوا أنفسهم، كالخلفاء، بمظاهر الأبّهة والعظمة، فاستقدموا أهل العلم والأدب من كل ناحية وأغدقوا عليهم الأعطيات، وأقاموا لهم المجالس وشاركوهم في ذلك. ومن أبرز شعراء المرحلة: ابن رشيق، وابن الغسال، وأبو القاسم بن الجدّ.

أما في العهد المرابطي، فقد نشطت الحركة العلمية والأدبية كما في العهد السابق، والجديد في هذه الفترة أن حكّام المغرب استخدموا أهل العلم في الدواوين المختلفة في الأندلس والمغرب. ومن مشاهير العصر: ابن رشد (. . . ـ ٥٩٥ هـ) في الفلسفة، وابن باجة (. . . ـ ٥٣٣ هـ)، وابن زهر الطبيب وابنه، وأبو بكر الطرطوشي المعروف بكتاباته في السياسة والإدارة.

---

(1) هو صاحب الأندلس، المعتمد على الله، أبو القاسم محمد بن الملك المعتضد بالله أبي عمرو، عبّاد بن الظافر قاضي إشبيلية، ثم ملكها محمد بن إسماعيل بن قريش اللخمي. حكم المعتمد قرطبة وإشبيلية، وكان فارساً شجاعاً، عالماً أديباً، جوّاداً، أسره المرابطون وقضوا على مملكته سنة ٤٨٤ هـ، بقي في سجنه سنتين، مات سنة ٤٨٨ هـ. وكان مولده سنة ٤٣١ هـ. سير أعلام النبلاء: ١٩/٥٨.

والبارز في عهد الموحّدين ظهور طائفة من المتصوّفة كابن عربي وابن سبعين والششتري. وقد شهدت العلوم والآداب ازدهاراً ملحوظاً بفضل تشجيع الحكّام من أمثال عبد المؤمن بن علي والمنصور يعقوب، فأقبل العلماء على الكتابة والتأليف في العلوم الشرعية واللغوية وحتى في العلوم العقلية، ومن جديد هذا العصر ازدهار فنّ الموشّحات، بعد نضوجها عبر العصور السابقة. ومن أهم الوشّاحين: أبو بكر بن زُهر.

أما في دولة بني الأحمر، فقد اصطبغ الشعر بلون الواقع، فتحوّل من التعدّدية في الأغراض، إلى شعر استنهاض للهِمَم، وحديث عن الحروب والهزائم. أهم شعراء العصر: لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك. ومن ملوك بني الأحمر الذين شجّعوا العلوم والآداب: أبو الحجّاج وابنه محمد الخامس.

٧ ـ دور المرأة في النهضة:

كنّا أشرنا سابقاً إلى أن النساء في الأندلس، كنّ، على الأغلب، أُمّيّات، واستثنينا من ذلك بعض الإماء اللواتي كان أسيادهنّ، يقومون بإعدادهنّ إعداداً خاصّاً، فيُؤَدّبن ويُعَلّمن بعض المهارات كالغناء والعزف والرقص ويحفظن الأشعار وما إلى ذلك، ونذكر هنا مصابيح جارية عمر بن قلهيل التي أُعجب ابن عبد ربّه بغنائها، وغيرها كثير. والآن سنعرض طائفة من النساء اللواتي اشتهرن بالعلم والأدب وحذقن نظم الشعر فاكتسبن التقدير والتبجيل، خصوصاً وأن معظم أولئك النساء كنّ ينتمين إلى طبقة الحكّام أو

الوزراء. ولكن أكثرهنّ برزن في القرن الرابع الهجري، منهنّ:

الغسّانية البجانية.

والعبادية جارية المعتضد والد المعتمد، وكانت أديبة، ظريفة، كاتبة، شاعرة، ذاكرة للكثير من اللغة.

وعائشة بنت أحمد القرطبية، قال[1] عنها المقرّي: «لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس مَن يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحةً، وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف. ماتت سنة ٤٠٠ هـ».

وحفصة بنت حمدون من وادي الحجارة.

وبثينة بنت المعتمد بن عبّاد وقد أورد[2] لها المقرّي خبراً إثر نكبة والدها، وكانت كوالدتها الرميكية جمالاً ونظماً للشعر.

وحمدة بنت زياد[3] من وادي آش، وسمّاها المقرّي خنساء المغرب وشاعرة الأندلس. وغير هؤلاء مما لا يتّسع له المكان. ومن نساء المائة الخامسة حسبنا أن نذكر وَلّادة[4] بنت المستكفي.

---

(١) نفح الطيب: ٤/٢٩٠.

(٢) نفح الطيب: ٤/٢٨٤.

(٣) نفح الطيب: ٤/٢٨٧.

(٤) ولّادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، وكانت واحدة زمانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة، مشهورة بالصيانة والعفاف، مال إليها ابن زيدون، وكانت بينهما مُساجلات، وكانت أديبة شاعرة. ماتت عذراء ولم تتزوج سنة ٤٨٢ هـ. نفح الطيب: ٤/٢٠٥.

الفصل الثاني
ابن عبد ربّه نشأته وسيرته وآثاره

١ ـ نشـــأته:

هو أبو عمر، أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب بن حُدير بن سالم، القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي[1].

لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن مكان ولادته ولكن البعض[2] يرى أنه ولد في قرطبة على الأرجح، في العاشر من شهر رمضان سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م. وكانت قرطبة حينئذٍ من أعظم مدن الأندلس، فهي عاصمة أمراء بني أُميّة، ومقرّ خلافتهم، تحيط بها المروج والبساتين والمياه من كل جانب، ليس لها مثيل بسعة رقعتها، أو بكثرة أهلها، أو بجمال طبيعتها، وأعظم من كل ذلك، كانت قرطبة مدينة العلم والثّراء، واللهو والغناء، وقد اشتهرت بمركزها الفنّي منذ عهد زرياب الذي أقام فيها وترك أثراً مميّزاً في الغناء والموسيقى، حتى صارت مقصد أهل الصّنعة من المغنّين والمغنيات من مختلف بلاد العرب، وخصوصاً من الحجاز، فامتلأت دُور الأثرياء والحكّام بالجواري اللواتي يُجِدْنَ الغناء والعزف، وأخذ الموسرون يتباهون

(١) وفيات الأعيان: ١/ ١١٠.

(٢) ابن عبد ربّه وعقده، ص ٢٣.

بجواريهم وبما يتقنّه من الغناء فأقاموا مجالس الأنس والسَّمَر، ودعوا إليها الشعراء والظّرفاء الذين ظفروا في نيل العطايا الجزيلة كما نالوا رِضا أهل السلطة.

في هذه الأجواء نشأ ابن عبد ربّه، فكان من الطبيعي أن يميل إلى السّماع ويتلذّذ بما يتيسّر من الغناء ووسائل الطرب الأخرى، وقد ذكر المقرّي أن ابن عبد ربّه مرّ بقصر من قصور قرطبة، لبعض الرؤساء، فسمع منه غناءً أذهب لبّه وألهب قلبه، فبينما هو واقف تحت الروشن إذ رُشّ بماء من أعاليه، فاستدعى رقعة وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة[1]:

يا مَن يضنّ بصوت الطائر الغرِد
ما كنت أحسب هذا الضنّ في أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضنّن على سمعي ومُنّ به
صوتاً يجول مجال الروح في الجسد
أما النبيذ فإني لست أشربه
ولست آتيك إلاّ كسرتي بيدي

ومن الطريف أن سيّد الجارية هذه، لمّا رأى الرقعة خرج حافياً وأدخل ابن عبد ربّه إلى مجلسه[2].

---

(١) نفح الطيب: ٧/٥٠. والديوان، ص ٥١.

(٢) الديوان، ص ٥١. وفي نفح الطيب: ٣/١٣١. وقد ذكر المقرّي أن الجارية اسمها مصابيح، وسيّدها الكاتب أبو حفص عمر بن قلهيل، وقد أخذت الغناء عن زرياب، وكانت غاية في الإحسان والنُّبل وطِيب الصوت.

ولا يكتفي أبو عمر باستمتاعه، بل ذهب في السّماع أيّ مذهب، فراح يدافع عن ميله ملتمساً المبرّرات، مستعيناً بالأحاديث النبوية وغيرها. يقول: «وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحِكَم والنوادر والأمثال، عطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب، لعظم موقع الصوت الحَسَن من القلب، وأخذه بمجامع النفس»[1]. ويذكر بعد ذلك طائفة من الأقوال والآراء التي أفرد لها كتاباً[2] خاصّاً في عقده، ويهمّنا هنا ما ذهب إليه من ادّعاء بأن الإنسان يتوصّل «بالألحان الحِسَان إلى خير الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصِلة الأرحام، والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب»[3]. وتراه يقف[4] مع الحجازيين ليردّ على العراقيين ذوداً عن مذهبه في السّماع والمجون:

دينـنـا فـي الـسّـمـاع ديـن مـديـنـي
وفـي شـربـنـا الـشـراب عـراقـي

وكما شغف بأصوات الجواري، كان يميل إلى الموسيقى، فيجلس لتشنيف أذنيه وخصوصاً إلى العود الذي كان يطربه يقول[5] في وصف العود وأنغامه:

---

(١) العقد الفريد: ٦/١.
(٢) العقد الفريد: جـ ٦، وقد سمّاه «الياقوتة الثانية في الغناء...».
(٣) العقد الفريد: ٦/٥.
(٤) الديوان، ص ١٢٥. وفي اليتيمة: ٢/٨.
(٥) العقد الفريد: ٦/٧٣. والديوان، ص ٧٤.

والعود يخفق مثناه ومثلثه
والصبح قد غرّدت فيه عصافره
وللحجارة أهزاج إذا نطقت
أجابها من طيور البرّ ناقره

وقد نال حظّه على ما يبدو من أصناف الملاهي الأخرى كالخمرة والجلوس مع الأصحاب على موائدها للهو والقصف يقول(1):

كلما علّني من الرّاحِ صِرفاً
علّني بالرضاب من شفتيه
ناولَ الكأس واستمال بلَحظٍ
فسقتني عيناه قبل يديهِ

ولشدّة ولوعه بالخمرة فقد ذكرها كثيراً وتغزّل بها، وعلى طريقة أبي نواس يقول(2):

موَرّدةً إذا دارت ثلاثاً
يفتّح وردها وردَ الخدودِ
فإن مزجت تخال الشمس فيها
مطبقةً على قمر السعودِ

ولكننا نلاحظ أنه في أواخر أيامه تاب، وأقلع عن كل ما كان منه أيام الشباب، وعبّر عن توبته في قصائد كثيرة يقول(3):

(1) الديوان، ص ١٧٤.
(2) الديوان، ص ٥٥.
(3) الديوان، ص ١٤٣.

ألا ويح قلبي لك باب الغضّ إذ ولّى
جعلتَ الغيّ سربالي وكان الرُّشد بي أولى

وهكذا، زهد أبو عمر، وقد بلغ الثانية والثمانين وأُصيب بالفالج قبل ذلك وتوفي لثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ، ودفن في مقبرة بني العباس.

٢ ـ علاقاته وتنقلاته:

ليس لدينا من المعلومات ما يفيدنا عن تنقلاته ورحلاته، ولكننا نستطيع الترجيح بناءً على ما توافر لدينا من أخباره، ومما لا شك فيه، أن ابن عبد ربّه اتصل بأهل الحكم من ملوك وخلفاء وأمراء، فمدح أمير قرطبة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم المتوفّى سنة ٢٧٣ هـ، وقد عرفت بلاد الأندلس في أواخر عهد محمد هذا، اضطرابات وفتناً كثيرةً، وكانت سلطة بني أُميّة تكاد تكون محصورة بقرطبة دون سواها، ثم مدح بعد ذلك الأمير منذر بن محمد ثم الأمير عبد الله وأخيراً مدح عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر. وهؤلاء جميعاً كانوا يتّخذون من قرطبة مقرّاً لهم، لذلك نميل إلى القول بأن شاعرنا أقام في هذه العاصمة التي وجد فيها الملوك العظام، كما وجد الأيدي التي تجزل العطايا لأهل الأدب وتقدّم لهم الرعاية والحماية.

وممّن اتصل بهم ومدحهم، أيام الأمير عبد الله، أمير من أمراء إشبيلية، وكان يُظهِر الطاعة للأمويين في قرطبة، وهو إبراهيم بن حجّاج الذي أكرم أهل الشعر والأدب، وشجّع العلوم والفنون

وأهلهما، حتى صار مقصد أهل العلم والفن من مختلف الأنحاء، حتى من بلاد الشام ومن الحجاز، وممّن وفد عليه قمر المغنية البغدادية.

ومن الجدير بالذكر أن علاقاته بهؤلاء كانت تتراوح بين الرضى والإعجاب والتذمّر والشكوى والعتاب. أما تذمّره فإننا نلمحه في أشعاره، فكثيراً ما كان يشكو البخلاء، والثقلاء، وأحياناً يشكو الناس جميعاً، ومن الصعب علينا أن نحدّد الأسباب الحقيقية لتذمّره، ولا نعرف أيضاً الوقت الذي تذمّر فيه. ولكن، ومن خلال هجومه على البخلاء في أكثر من موقع ومناسبة، يدلّ على أنه كان يشكو القلّة والفقر، وشحّ الذين يملكون المال ولا يجودون به، ويأتي على رأس هؤلاء، الحكّام الذين يعتب عليهم ويتذمّر منهم ولكنه لا يصرّح بذكر أحد منهم، ولعلّ بعض ممدوحيه قصّر في إكرامه، وكان في ضائقة، فاضطر إلى إعلان تبرّمه.

٣ - ثقـافته:

ألمّ ابن عبد ربّه بثقافة عصره، فتفقّه بالدين، ودرس علوم العصر كعلوم العربية والتاريخ والشريعة، حتى استحقّ وعن جدارة أن ينعته المؤرّخون القدامى بالعالِم، فقال عنه المقّري: «عالم ساد بالعلم ورأس... وشُهِرَ بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذِكره... وكانت له عناية بالعلم وثقة، ورواية له متّسعة، وأما الأدب فهو كان حجّته، وبه غمرت الأفهام لجّته، مع صيانة وورع، وديانة وورد ماءها فكرع»(١).

---

(١) نفح الطيب: ٧/٤٩.

وسمّاه غيره(١) بالعلّامة الأديب الإخباري صاحب «كتاب العقد».

وقد ذكر(٢) السيوطي نقلاً عن ابن الفرضي أن ابن عبد ربّه «عالِم الأندلس بالأخبار والأشعار وأديبها وشاعرها، كتب الناس تصنيفه وشعره سمع من بقي بن مخلد(٣) وابن وضّاح والخشني». ويتّضح من خلال ما ذكر السيوطي أن هؤلاء الثلاثة هم شيوخ أبي عمر، وقد أخذ عنهم من خلال حلقات التدريس التي كانت تقام في مساجد قرطبة، فدرس على الأول الفقه والتاريخ، وأخذ الحديث عن ابن وضّاح، واللغة عن الخشني(٤).

٤ ـ آثــاره:

يعتبر كتابه «العقد الفريد»(٥) ثمرة ثقافته الواسعة المتشعّبة وهو يحتوي على كل صنف ولون من الأخبار والنوادر والأمثال وقد أكثر فيه المؤلّف النقل عن كتب المشارقة.

ولابن عبد ربّه أشعار كثيرة(٦)، كانت متفرّقة في عدّة مصادر

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء قال: سمع بقي بن مخلد وجماعة وكان موثقاً نبيلاً بليغاً شاعراً. السير: ١٥/٢٨٣.

(٢) بغية الوعاة: ١/٣٧١.

(٣) أدخل ابن مخلد الكثير من كتب المشارقة، كمصنّف ابن أبي شيبة، وفقه الشافعي.

(٤) كان دخل بغداد والتقى لغوييها وأخذ عنهم اللغة وأخذ الشعر عن رُواتها كما التقى المحدّثين وأخذ عنهم.

(٥) سيأتي الحديث على الكتاب لاحقاً.

(٦) جمع أشعاره الدكتور محمد الداية، ونشرتها دار الرسالة سنة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م بيروت.

والعقد يحوي جزءاً كبيراً منها، والباقي متفرّق بين اليتيمة للثعالبي ونفح الطيب وغيرهما.

٥ ـ مصادر أخرى لثقافته:

عني أبو عمر، كغيره من علماء الأندلس وأدبائها، بدراسة أخبار الشرق وعلوم المشرقيين، واطّلع على آدابهم شعراً ونثراً، وقد بدا أثر هذه الثقافة واضحاً في عقده. وقد رُوِيَ عن الصاحب بن عبّاد[١]، لمّا وصل إليه العقد واطّلع عليه قال: «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه». ولم يكن أبو عمر هو الوحيد من أدباء الأندلس الذي ينقل عن المشارقة، بل كان ذلك شأنهم جميعاً حتى أواخر القرن الثالث الهجري، وقد شجّع عملية التقليد والنقل عدة عوامل منها: الرحلات المنظّمة إلى المشرق من أجل التحصيل العلمي واستحضار الكتب، وكذلك الحنين الدائم الذي عاشه العرب في الأندلس، فساروا على خطى المشرقيين في كل شيء وليس فقط في الكتابة والتأليف. أما التجديد بالمعنى الحقيقي، فلم يُعرَف إلاّ في أوائل القرن الرابع، حيث تبلورت معالِم الحضارة الجديدة وصار لذلك الشعب خصائصه المميزة، كشعب بعد أن كان فئات متعايشة وهي متباينة في كل شيء.

---

(١) الصاحب بن عبّاد: الوزير الكبير، أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد بن عباس الطالقاني، وزير الملك مؤيّد الدولة بويه بن ركن الدولة، أديب كاتب، له تصانيف كثيرة منها «المحيط» في اللغة، و«الوزراء». مات بالريّ ونقل إلى أصبهان سنة ٣٨٥ هـ. سير أعلام النبلاء: ١٦/٥١١.

ومن أشهر الأعلام المشرقيين، الذين أخذ عنهم ونقل: المبرِّد، والأصمعي، والشيباني، والمدائني، والعتبي، وأبو عبيدة، وابن المقفّع، وابن سلّام الجمحي، وابن الكلبي، والجاحظ، وابن قتيبة وهؤلاء جميعاً كانوا معروفين مشهورين في الأندلس، ومؤلّفاتهم متداولة بين أيدي أهل العلم والأدب.

وإذا علمنا أن أهالي قرطبة كانوا يتنافسون في اقتناء الكتب ابتغاء الشُهرة، يتبيّن لنا مدى النهضة العلمية التي شهدتها هذه الحاضرة، حتى قال فيها بعض المستشرقين: «لم يكن هناك مدينة في أوروبا - إذا استثنينا بيزنطة - تقابل بقرطبة من حيث جمال دُورها وقصورها وأناقة الحياة فيها، والبذخ وثقافة أهاليها وعلمهم».

وهكذا، نشأ أبو عمر في بيئة علم، ووسط إقبال على كافّة أنواع العلوم والآداب، التي لقيت أيضاً تشجيع أهل الحكم، مما أثّر فيه من حيث التحصيل العلمي، كما أثّر في ميوله ونزعاته وأخلاقه.

أما العلوم العقلية، فليس لدينا ما يثبت أنه اهتمّ بها أو درسها، بل العكس، عندنا ما يفيد أنه رفض بعض تلك العلوم والنظريات، ويتعرّض أثناء ذلك إلى بعض المذاهب الدينية كالمرجئة وسيأتي بيان ذلك لاحقاً.

٦ - شخصيته:

كان يوصف بالديانة والصيانة والعفّة، وفي الوقت نفسه كان يميل إلى اللهو والعبث، ويبدو أنه كان يملك ميلاً فطرياً للدعابة والفكاهة، ولذلك نراه قد خصّ الفكاهات والملح بباب مستقل في

عقده سمّاه «اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح»، ويقول في بدايته: «. . . هي نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور»[1]. ثم يستحضر الأقوال والشواهد من الحديث الشريف وغيره ليدلّل على إباحة الضحك والترويح عن النفس؛ من ذلك ما نسبه إلى النبي ﷺ قوله: «روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت»[2].

وإذا تتبّعنا القصص والنوادر التي ساقها في هذا الكتاب، وغيره، نلاحظ أنه لم يقصد من ورائها التأريخ، بل قصد الإضحاك وإضفاء جوّ مشوق ممتع يشدّ القارىء ويسلّيه أكثر مما يقدّم له من الثقافة والغنى العلمي، كقصّة العباس بن الأحنف، وقصة إسحاق الموصللي مع المأمون، والناسك والجرّة، بالإضافة إلى حكايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وقد ذكر فيها أشياء يخجل المرء أن يرويها، كتلك الأخبار التي ساقها عن امرىء القيس، وأخبار إسحاق الموصللي والرشيد وجواريه[3]، وحديث أبي السمراء[4]، وخبر الحسن بن هانىء مع الأسود[5]، كل هذه الأخبار، لا تقدّم للقارىء فائدة تُذكر، ولا مسوّغ لها غير التسلية، مع العلم أنها استهلكت من كتابه ستّاً وتسعين صفحة، فيها من السّخف والتسفّل ما ينبو عن الذّوق. ومما أورده من الطرائف

---

(١) العقد الفريد: ٣٧٩/٦.

(٢) العقد الفريد: ٣٧٩/٦.

(٣) العقد الفريد: ٤٠٣/٦.

(٤) العقد الفريد: ٣٩١/٦.

(٥) العقد الفريد: ٤١١/٦.

المضحكة: «وقال رجل من تلاميذ الأعمش صنعت للأعمش طعاماً، ثم دعوته، فمضى معي وأنا أقوده، حتى سقطت رجله في حُفرة يعملها الصبيان للكرة، فقال: ما هذا؟ قلت: حفرة يعملها الصبيان للكرة، قال: لا، ولكنك حفرتها لتقع رجلي فيها، والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاماً، قال: فحملت الطعام إليه، ثم صنعت له بعد ذلك طعاماً ودعوته إليه فقال: ادخل بنا الحمّام قبل ذلك، فأدخلته الحمّام فلما جئت أن أصبَّ الماء الحارّ على رأسه قال: ما دعاك إلى هذا؟ أردت أن تسلخ قفاي، والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاماً! قال: فحملت الطعام إليه»[1].

٧ ـ تشيّعه:

كان ابن عبد ربّه ينهج طريقاً وسطاً في كل شؤونه، ففي الفقه كان على مذهب شيخه بقي بن مخلد متخيّراً غير مقلّد، ويستشهد بالحديث: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[2]، وإن تطرّق إلى الملاهي والسّماع والشراب، حاول أن يبرّر لنفسه، ويدعو إلى التوسّط، لا إلى الإفراط، وإذا تحدّث عن الاقتصاد، اعتمد المبدأ نفسه واستدلّ على ما يذهب إليه بآيات قرآنية أو بأحاديث شريفة. والمبدأ نفسه، اعتمده في نظره إلى بعض المذاهب والحركات السياسية والدينية، فهو يرفض التطرّف والغلوّ في كل شيء، فينكر على الرافضة والسبئية

(١) العقد الفريد: ٦/٤٣٤.

(٢) العقد الفريد: ٢/٣٧٠. ورواه الإمام أحمد: ٣، ١٩٩، وفيه ألا إن. . .

والمنصورية ما ذهبوا إليه في ادّعائهم ويلعنهم ويُورِد خبر إحراقهم[1].

أمّا الحكم عليه بالتشيّع، فمردّه إلى مواقف وأقوال تُظهِر حبّه لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ولأولاده، كما أنه كان لا يخفي بغضه وسخطه على خصوم علي وخصوصاً أولئك الذين آذوا أبناءه فيما بعد. وقد أورد في العقد أحاديث نبوية كثيرة، تبيّن فضل آل البيت وتبيّن تهافت مَن يبغضهم أو الذي يتعرّض لهم بأيّ نوع من الأذى. من هذا، ذكره لحديث النبي ﷺ «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية»[2].

والمعروف أن عمّاراً قاتل في صفوف جيش عليّ رضي الله عنه في صفّين، وقُتِلَ، قتله أنصار معاوية بن أبي سفيان، وقد ساق ابن عبد ربّه هذا الحديث للدلالة على أن قاتِلِي عمّار، أي جيش الشام وبني أُميّة، هم الفئة الباغية بمقتضى الحديث، وقد تحقّقت نبوءة النبي ﷺ.

وتراه في مواقع كثيرة، يُسهِب في بيان فضائل الإمام عليّ من

---

(١) الرافضة والسبئية والمنصورية من فِرَق الشيعة الغالية، زعموا أن عليّاً في السّحاب، وأنه يُحيي الموتى. والسبئية أحرقهم الإمام عليّ رضي الله عنه ومنهم المغيرة بن سعد الذي زعم أن عليّاً أفضل من الأنبياء ويُماثل محمداً ﷺ.
أما نسبة السبئية فإلى عبد الله بن سبأ زعيمهم، والمنصورية فنسبة إلى أبي منصور الكِسف.

(٢) العقد الفريد: ٣٤١/٤. والحديث رواه البخاري في كتاب الصلاة، ٦٢. ورواه مسلم في كتاب الفتن ٧٠.

الأحاديث النبوية، ويدافع عن مواقفه تجاه بني أُميّة أو الخوارج، وإذا ذكر يزيد بن معاوية ينفعل ويقول: «لا رحمه الله»[1]، وإذ يُذكَر الحسن والحسين، يثني عليهما ويذمّ قاتِلِي آل عليّ في كربلاء وغيرها، ولكنه لم يذمّ معاوية وقد ذكر له بعض الأقوال[2] في الحكم والسياسة.

أما موقفه من بني العباس فلم يكن بأفضل من موقفه تجاه الأمويين، فلم يكن راضياً عنهم، وطعن عليهم، ثم مدح المروانيين، وليس في ذلك تناقض مع موقفه المؤيّد لآل البيت، لأنه رأى أن المروانيين لم يتعرضوا لهم بل تجنّبوا كل ما يمكن أن يؤدّي إلى إلحاق الأذى بأيٍّ منهم. ولا ينبغي لنا أن ننسى مكانته لدى الأمراء الأمويين في قرطبة، فلم يكن بمقدوره أن يقف في صفّ بني العباس أو أن يمدحهم ـ هذا لو كان أحبّهم ـ.

ثم إن عبد الملك بن مروان كان تعهّد بأن لا يتعرّض الهاشميون لأيّ أذىً وكتب بذلك إلى الحجّاج: «جنّبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الحرب وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي»[3].

---

(١) العقد الفريد: ٤/٣٩١.
(٢) العقد الفريد: ٤/٣٦٣.
(٣) العقد الفريد: ٤/٤٠١.

الفصل الثالث

أدب ابن عبد ربّـــه

١ ـ شـــعره:

قال الثعالبي عن ابن عبد ربّه: «أحد محاسن الأندلس علماً وفضلاً، وأدباً في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البـلاغة والطلاوة»[١].

وقال المقرّي: «. . . وأما الأدب فهو ـ كان ـ حجّته. . . وله شعر انتهى منتهاه وتجاوز سِماك الإحسان وسماه»[٢].

والسيوطي قال: «عالِم الأندلس بالأخبار والأشعـار وأديبها وشاعرها، كتب الناس تصنيفه وشعره»[٣].

وابن خلّكان قال في معرض ترجمته له: «وله ديوان شعر جيد». وساق مقتطفات من شعره.

ومما يرويه[٤] المقرّي «أن أبا الوليد بن عيال، لمّا انصرف من

(١) يتيمة الدهر: ٢/٧٤.

(٢) نفح الطيب: ٧/٥٠.

(٣) بغية الوعاة: ١/٣٧١.

(٤) نفح الطيب: ٣/٥٦٤.

الحجّ اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص بمصر، ففاوضه قليلا، ثم قال له: أنشدني لمليح الأندلس، ـ يعني ابن عبد ربّه ـ، فانشده:

يـا لـؤلؤاً يـسبي العـقـول أنـيقـاً
ورَشـاً بـتـقـطـيـع القـلوب رفـيـقـا
مـا إن رأيـت ولا سـمـعـت بـمـثـلـه
دُرّاً يـعـود مـن الـحـيـاء عـقـيـقـا
وإذا نـظرت إلـى مـحـاسـن وجـهـه
أبصـرتَ وجهك في سنـاه غـريقـا
يـا مَـن تـقـطّع خـصـره من رقّـةٍ
مـا بـال قـلبـك لا يكـون رقـيقـا

فلما أكمل إنشادها، استعادها منه وقال: يا بـن عبد ربّه لقد تأتيك العراق حبواً».

وإذا كان الأمر كما ذكر المترجمون له، وقد شهدوا له جميعاً بالشاعرية والتفوّق، فإنهم لم يحدّدوا أسرار ذلك التفوّق، ولا هم كشفوا عن مواطن الجودة في شعره، وكلّ ما فعلوه أنهم أصدروا حكماً كليّاً وعرضوا علينا بعض المقطوعات، خصوصاً في الغزل للدلالة على مبلغ تفوّقه. على كل حال، يبقى الأمر خاضعاً للمناقشة.

وقد ذكر الحميدي أن شعر ابن عبد ربّه مجموع وأنه أي الحميدي رأى منه نيّفاً وعشرين جزءاً[1].

---

(١) ابن عبد ربّه وعقده، ص ١٦٤.

ولكن الأمر المدهش أن شعره الذي وصل إلينا لا يتجاوز ألفي بيت، في الأغراض المختلفة بما في ذلك ما تضمنه هذا الديوان من شواهد عروضية، وكانت متناثرة ما بين عقده ومصادر أخرى مختلفة(١). وهذا الديوان، على ضآلة حجمه، يحتوي على مقطوعات في الفنون التقليدية جميعاً: الغزل، والمدح، والهجاء، والرثاء، والزهد، فضلاً عن الوصف والإخوانيات، إضافة إلى أرجوزة في العروض وأخرى في ذكر مغازي الناصر.

ولمّا كان الشعر تعبيراً عن البيئة، والبيئة كما سبق ووصفنا، هدوء وجمال طبيعي، مياه وخضرة، غزوات وانتصارات، مجالس أنس ولهو ومرح، فأطلق، إزاء ذلك، لشاعريته العنان، وصال في بحور الشعر وجال. وسنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على كلٍّ من الفنون التي نظم فيها على حِدَة.

٢ ـ أغراضه الشعرية:

أ ـ الغزل:

حَظِيَ الغزل، عند ابن عبد ربّه، بنصيب وافر من العناية، ولم يكن ذلك مستغرباً، في بيئة غنية بشتّى صنوف الجمال، وما الغزل إلّا صدىً لما كان في قرطبة والأندلس من جمالات طبيعية وأنثوية، إضافة إلى ما في نفس الشاعر من عواطف جيّاشة، وميل فطري نحو الجمال والنساء. ومن هنا كان اهتمام المؤرّخين ـ الذين نقلوا وتناقلوا أخباره ـ بغزله، وهم إذ يثنون عليه ويشهدون له فينطلقون من

---

(١) سبق وأشرنا أن الدكتور محمد الداية جمع هذا الديوان ونشرته دار الرسالة، بيروت.

غزلياته، على ما يظهر، وليس أدلّ على ذلك من استشهادهم بأبيات غزلية عند الحديث عن الشاعرية، وما رويناه في الصفحات السابقة فيه دليل على ذلك، لا سيما ما حُكِيَ عن المتنبّي من أنه استطار طرباً وأثنى على شاعر الأندلس ومليحها عندما سمع أبياتاً من الغزل لأبي عمر. وإذا نظرنا ملياً بعين الناقد المتبصّر، في ذلك الحكم الذي ينسب إلى المتنبي، نرى أنه لم يكن حكماً دقيقاً مبنيّاً على دراسات شاملة لشعر ابن عبد ربّه، ولا هو قريب من نفسيته وأخلاقه، إنما الحكم ذاك كان عامّاً من خلال جزء! فما سرّ افتتان المتنبي بهذه الأبيات إذاً؟ فالواضح، أن الأبيات تتميّز برقّة، وخفّة، وحُسْن صنعة وبُعْدٍ عن التعقيد، ما جعل أبا الطيب يقول ما قاله. والناظر في آراء الأخرين كابن خلّكان، فإنه حكم له بالشاعرية ثم استشهد بأبيات غزلية، والمقرّي فعل الشيء نفسه، كل ذلك، بنظرنا، يدلّ على أن ابن عبد ربّه بلغ في الغزل ما لم يبلغه غيره، فوقعت أفكاره ومعانيه وصوره وأساليبه، في نفوس الناس، العامّ منهم والخاصّ، موقعاً حسناً أدّى بهم لاتخاذ بعض غزله كمثلٍ على حذقه الصّنعة. ونحن، بدورنا، قدّمنا الحديث عن الغزل، على غيره، انطلاقاً مما تقدّم وبناءً على ما ذكر. ومن جيّد شعره حيث يجمع رقّة المعنى إلى جزالة اللفظ قوله:

الجسم في بلد والروح في بلد
يا وحشة الروح بل يا غربة الجسدِ

إن تبكِ عيناك لي يا مَن كلفت به
من رحمةٍ فهما سهماك في كبدي

ومثل ذلك قوله:

سـاحبـة فـضـل الـذيـول كـأنـهـا
قـضـيـبٌ مـن الـريـحـان فـوق كـثـيـبِ
إذا مـا بـدت مـن ثـغـرهـا قـال صـاحبي
أطـعـنـي وخـذ مـن وصـلهـا بـنـصـيـب

إن هذه الأبيات، تمثّل الجودة التي تحدّثوا عنها، وحكموا لشاعرنا من خلالها، ولو دقّقنا فلن نجد فيها جديداً بالمقارنة مع الغزل التقليدي في المشرق إبان العصر العباسي، سواء من حيث الشكل، أو من حيث المضمون، فالمعاني مستهلكة تفوح منها روائح الشرق، من معنى الشقاء للروح والجسد، وبُعد المسافة، والصدّ والهجر، والوصل، والبكاء والوحشة، وسهم العين النافذ، إلى ما هناك من المعاني، ليس فيها معنىً واحداً مبتكراً، مع العلم أن أبا عمر قد درج على القول بأن ما ينظمه في رقّة التشبيب، هو مما لم يُسبَق إلى مثله[1]. والذي نراه من المعاني ههنا هو نفسه يتردّد في معظم المقطوعات الغزلية الأخرى، ولعلّ التربية الدينية التي تلقّاها أبو عمر، هي التي حدّت من أقواله ومن تصرفاته، وكذلك كانت الحال مع كثيرين من شعراء الأندلس، فتحدّثوا عن الصدّ والهجران، والبُعْد والقُرْب، والمعاناة والألم، فلم يصرّحوا - ومنهم ابن عبد ربّه - عن مغامراتهم بطريقة إباحية، كما هو مُلاحَظ في شعر المشرقيين. وبالرغم من كل ما تقدّم، فإن له أبياتاً ومقطوعات، فيها من الخيال الشعري والصياغة الفنية، ما يؤهّله أن يكون شاعراً مجيداً، مبتكراً من حيث الرقّة والطلاوة، وصدق العواطف، فانظر طريقته في وصف فتاة تبكي:

(١) العقد الفريد: ٣/١٧٦.

وكـأنمـا غـاص الأسى بجفـونهـا
حـتـى أتـاك بـلـؤلـؤ مـنـشـورِ

إنها صورة رائعة حقاً، إذ انقلب الحزن إلى غوّاص يغوص تحت الجفون ليأتي بلألىء فريدة، فمعنى الغوص الذي استعاره للحزن لهو مما لم يسبق إليه.

وفي معنى الفراق والوداع يقول:

ودعـتـنـي بـزفـرة واعـتـنـاق
ثم نـادت: متى يكـون التـلاقي!
وتصـدّت، فـأشـرق الصبـح منهـا
بـيـن تـلك الـجـيـوب والأطـواق
يـا سقيم الجفـون من غيـر سقم
بـين عـيـنيـك مصـرع الـعـشّـاق
إن يـوم الـفـراق أفـظـع يـوم
لـيتـني مـتّ قـبـل يـوم الـفـراق

جودة ورقّة تنبعث من هذه الأبيات، مصدرها صدق ودفق عاطفي، وعمق في التجربة، وخيال خصب يرتبط بجمال المرأة وبالطبيعة في آنٍ معاً، لأن الأندلسيين عموماً شديدو اللصوق بطبيعة بلادهم، وهي تفعل في نفوسهم ما لا يفعله المطر في الأرض المجدبة.

ومن غزلياته ما جاء معارضةً أو تقليداً لشعراء مشرقيين من أمثال صريع الغواني، وأبي تمّام، ويلاحظ في هذه المعارضات شيء من التكلّف، ولو أن بعضها كان موفّقاً صادقاً لأن نفس الشاعر

كانت مُهيّئة لإبداء العواطف والكشف عن مكنونات النفس، ولو في غير مناسبة حقيقية. قال: «ومما عارضت به صريع الغواني في قوله:

أديـرا عليّ الـرّاح، لا تشـربـا قبلي
ولا تـطلبـا من عنـد قـاتلتي ذحلي
فيـا حـزني إني أمـوت صبـابـةً
ولكن عـلى مَن لا يحـلّ لـه قتلي
فـديـت الـتـي قـالـت لـتـربـهـا
دعيـه، الثـريـا منـه أقـرب من وصلي
فقلت على رويّه:

أتـقتلني ظـلمـاً، وتـجـحـدنـي قـتـلي
وقـد قـام من عينيـك لي شـاهـدا عـدلِ
أطـلاب ذحلي، ليس بـي غيـر شـادن
بعينيـه سحـر، فـاطلبـوا عنـده ذحلي
أغـار عـلى قـلبـي، فـلمـا أتـيـتـه
أطـالـبـه فيـه، أغـار عـلى عـقـلي
وأحببت فيهـا العـذل حبّـاً لـذكـرهـا
فـلا شيء أشهى في فؤادي من العذل»

واضح في هذه المعارضة، أن الشاعر يتكلّف في هذه الأبيات الرويّ والوزن وأكثر من ذلك هو يأتي بعكس المعنى أو أنه يزيد عليه، فإذا كان مسلم بن الوليد أو صريع الغواني، يرفض العذل ويتضايق منه، ها هو ابن عبد ربّه، يستمتع بالعذل ويطلبه، ليذكر اسم حبيبته، والكتمان عندهما معاً واحد هو كتمان الحب، ولكن

الأسى والحزن يفضحان المرء ويكشفان سرّه رغماً عنه، فيأتي الإعلان أحياناً عن طريق البكاء، وأحياناً عن طريق الانطواء... والحبّ عنده يذلّ، ولكنه ذلٌ مبرّر بحجة أنه يوصل إلى العزّ. وفي النهاية، إن الشاعر في معارضته هذه، أراد أن يتحدّى ليثبت مقدرته، حتى في غياب الحبيبة والظروف الدافعة التي تُلهِب المشاعر، فإذا لم تتوافر هذه الظروف، في الغالب، يأتي الشعر متكلّفاً كما ذكرنا ومائلاً إلى الجفاف بعيداً عن حرارة الانفعال وصدق المشاعر.

ومع ذلك، فإن أبا عمر، يعتزّ بمثل هذه المعارضات فيقول: «فمَن نظر إلى سهولة هذا الشعر، مع بديع معناه ورقّة طبعه، لم يفضله شعر صريع الغواني عنده إلّا بفضل التقدّم»[١].

بقي أن نشير إلى بعض المقطوعات الغزلية، التي نظمها في الأصل لغايات قد يكون التعليم أحدها، وما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد أننا لا نجد فيها تلك الحرارة التي توجد في المقطوعات الأخرى، حتى إننا لا نقع فيها على فكر أو عقيدة، وما يميّز هذه المقطوعات أنه ذيّل كلاً منها ببيت من الشواهد العروضية التي استشهد بها الخليل بن أحمد في عروضه فضمّنه أبو عمر في قصيدته.

يلزم عن ذلك أنه اضطر إلى نظم أبيات المقطوعة على وزن الشاهد ورويّه، وغنيٌ عن البيان، ما في ذلك من تصنّع وكدٍّ وجهد، وقد ألمح[٢] هو نفسه إلى غايته من وراء هـذا المنهج وبـرّر لجوءه إلى الغزل لسهولته وخفّته مما يسهل حفظه.

(١) العقد الفريد: ٣٩٨/٤.

(٢) العقد الفريد: ١٨٨/٣.

من هذه المقطوعات قوله:

يا مليحةَ الدعَج هل لديك من فرجِ؟
أم تُراك قاتلتي بالدلال والغنج؟
مَن لحسن وجهك مِن سوء فعلك السمِج؟
عاذليَّ حسبكما! قد غرقت في لُجَج
«هل عليّ، ويحكما!، إن لهوت من حرج»[1]

أخيراً، إن شاعرنا، كان يلقى الترحيب والإعجاب بشعره، وبغزله خصوصاً، لذلك أُعجب بنفسه، ولم يعترف لأحد من معاصريه أو غيرهم من الشعراء، بالتفوّق أو بحُسْن الصّنعة، إلاّ الغزّال، فهو الوحيد من الشعراء الذين ظفروا بشهادة ابن عبد ربّه. ولعلّ عدم اعترافه بتفوّق غيره يعود لذلك المقياس الذي حدّده لنفسه فعمّمه وصار يقيس عليه ويعرض أعمال الشعراء، ومنطلقه «رقة التشبيب وحُسْن التشبيه البديع الغريب الذي لم يسبق إليه».

ب ـ الهجاء:

عُرِفَ أبو عمر بحدّة مزاجه، وبكثرة تبرّمه وتشكّيه ممّن حوله، خصوصاً من الذين يخالفونه في الرأي أو يصدّونه ويبخلون عليه، لذلك كان يسارع إلى الهجاء فيقذع حيناً، ويسخر ويتهكّم حيناً آخر، فيجعل من المهجو أضحوكة حتى ولو كان من المقرّبين إليه، وقد أورد[2] المقرّي حادثة للدلالة على سرعة جواب أهل الأندلس

(١) المقطوعة في الديوان، ص ٤٢. والبيت الأخير من شواهد العروض على البحر المقتضب.

(٢) نفح الطيب: ٣/٢٩٤.

وهي تصلح شاهداً لما نذهب إليه من إقذاع أبي عمر، يقول: «إن ابن عبد ربّه كان صديقاً لأبي محمد يحيى القلفاط[1] الشاعر، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربّه صاحب العقد مرّ به يوماً وكان في مشيه اضطراب، فقال: أبا عمر، ما علمت أنك آدر إلّا اليوم لما رأيت مشيك، فقال له ابن عبد ربّه: كذبتك عِرسك أبا محمد، فعزّ على القلفاط كلامه، وقال له: أتتعرّض للحُرُم؟ والله لأرينّك كيف الهجاء ثم صنع فيه قصيدة أولها: يا عِرس أحمد... ثم تهاجيا بعد ذلك، وكان القلفاط يلقبه بطلاس، لأنه كان أطلس اللحية، ويسمّي كتاب العقد حبل الثوم، فاتفق اجتماعهما يوماً عند بعض الوزراء، فقال الوزير للقلفاط: كيف حالك اليوم مع أبي عمر؟ فقال مرتجلاً:

حالَ طلاسٌ لي عنِ رائه
وكنتُ في قعدد أبنائه

فبدر ابن عبد ربّه وقال:

إن كنتَ في قعدد أبنائه
فقد سقى أمّك من مائه

فانقطع القلفاط خجلاً».

أما تبرّمه، فأكثر ما يتجلّى حيال البخلاء، الذين لا يحفظون الودّ، ويشكو أحياناً الفقر ويذمّه ويضيق ذرعاً بالحرمان، فيوجّه سهامه نحو الكذابين والمسوّفين، يقول في رجل وعده بعِدَة في صحيفة ومطله بها[2]:

---

(١) هو أبو محمد يحيى القلفاط (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ)، شاعر قرطبي كان يقرىء ويدرس، اشتهر بالهجاء.

(٢) الديوان، ص ٩٢.

صحيفة كتبت ليتَ بها وعسى
عنوانها راحة الراجي إذا يئسا
وعدٌ له هاجسٌ في القلب قد برمت
أحشاء صدري به من طول ما هجا
يراعةٌ غرّني منها وميضُ سنىً
حتى مددت إليها الكفّ مقتبسا(١)
فصادفتُ حجراً لو كنتَ تضربه
من لؤمه بعصا موسى لمّا انبجسا
كأنما صيغ من بخلٍ ومن كذبٍ
فكان ذاك له روحاً وذا نفسا
كلبٌ يهرّ إذا ما جاء زائره
حتى إذا جاء مُهديِ تحفةٍ نبسا

ويبدو أن الحاجة إلى المال جعلته يتخطّى المسوّفين الذين يخلفون الوعود، إلى الناس جميعاً فيسيء الظن بالكلّ ولا يرى غير البخل والبخلاء، لا بل، الكلاب! يقول(٢):

ودهر سادت العبدان فيه
وعاشت في جوانبه الذئابُ
وأيام خَلَت من كل خيرٍ
ودنيا قد توزّعها الكلاب
كلابٌ لو سألتهم تراباً
لقالوا: عندنا انقطع التراب

---
(١) اليراعة: حشرة صغيرة.
(٢) الديوان، ص ٢٥.

يعـاقب مَن أسـاء القـول فيهم
وإن يحسـن فليس لـه ثـواب

فالعجيب أننا نرى التشاؤم يطغى على هذه الأبيات، ما يجعلنا نتوقف قليلاً، لنعيد التفكير في ما نُسِبَ إليه من الصيانة والديانة والعفّة، فلا أدري كيف يصدر عمّن اجتمعت له هذه الصفات، مثل هذه الأقوال في ذمّ الناس جميعاً وفي توهّم أن الخير قد فُقِدَ من الدنيا تماماً، على وجه التعميم؟!.

وعندما يشكو الفقر يذمّ البخل والبخلاء، مما يوضح ما نذهب إليه من أن نقمته ترتبط بأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى، يقول[1]:

فـررت من الفقـر الـذي هـو مـدركي
إلى بخـلٍ محـظور النُـوال مَنُـوع
فـأعقبني الحـرمـانُ غِبّ مـطامعي
كـذلـك مَن تـلقـاه غـيـرُ قَنـوع
وغيـر بـديـع منـع ذي البخـل مـالـه
كمـا بـذلُ أهـل الفضـل غير بـديـع

وقد نقل ابن صاعد الأندلسي من خبر ابن أخي الشاعر سعيد، أنه فصد يوماً فبعث إلى عمّه أبي عمر يطلبه ليواسيه وكتب إليه[2]:

لمّـا عـدمتُ مؤنسـاً وجليسـاً
نـادمت بقـراطـاً وجـالينـوسـا

---

(١) الديوان، ص ١٠٦.
(٢) الخبر والأبيات في الديوان، ص ٩٢.

وجعلت كتبهمـا شفـاء تفـرّدي
وهمـا الشفاء لكـل جرح يـوسى

ولمّا وصلت الأبيات إلى أبي عمر أجاب ابن أخيه سعيد، وكان طبيباً شاعراً، بأبيات تسيطر عليها الخفّة وروح النكتة، فيداعب سعيداً ويتّهمه بالبخل، ومما قاله:

الـفيـت بقـراطـاً وجـالـيـنـوسـاً
لا يـأكـلان ويـرزآن جـليسـاً(١)
فـجـعـلتـهـم دون الأقـارب جُـنَـةً
ورضيتَ مـنـهـم صـاحبـاً وأنـيسـاً
وأظن بخلك لا يُـرى لـك تـاركـاً
حـتـى تـنـادم بـعـدَهـم إبـليسـاً

ومتى ضاقت به الـدنيا، لجـأ إلى إخوانـه من الأصحاب والنافذين، طالباً نـوالهم ومساعـدتهم فيمدحهم إذا أجـابوه، أو يهجوهم إذا قصّروا عنه.

قـــال(٢):

ســاقٌ تـرنّـح يشـدو فـوقـه سـاق
كـأنـه لحنين الـصـوت مشتـاقُ(٣)

---

(١) الديوان، ص ٩٢. بقراط: طبيب يوناني قديم. جالينوس: فلكي يوناني قديم.
(٢) الديوان، ص ١١٦.
(٣) ساق الأولى: ساق الشجرة. وساق الثانية؛ ساق حرّ وهو ضرب من الحمام.

يـا ضيعـة الشعـر في بُلهٍ جـرامقـةٍ
تشـابهت منـهم فـي اللؤم أخـلاق[1]

كـأنمـا بينهـم في منـع سـائلهـم
وحـبس نـائلهـم عـهـدٌ ومـيـثـاق

كـم سُقتهـم بـأمـاديحي وقُـدتـهـم
نحـو المعالي فمـا انقادوا ولا انسـاقوا

يتابع في القصيدة عينها معبّراً عن أنفته وعزّة نفسه، رافضاً لكل رزق يرافقه إذلال ومهانة:

يـا قـابض الكفّ لا زالت مقبضـة
فـمـا أنـاملهـا لـلنـاس أرزاقُ

ولا إليـك سبيـل الجـود شارعـةً
ولا عليـك لنور المجـد إشـراقُ

لـم يكتنفني رجـاء لا ولا أمـلٌ
إلّا تـكـنّـفـه ذلٌّ وإمـلاقُ

وتراه يندب حظّه من الدنيا، التي تجود على الكسالى الثقلاء وتحرم الظرفاء من أمثاله، فينعم أخو الجهل بالغنى والمال، ويتخبّط هو ومَن شابهه في الفقر والعوز:

وأعـذر مـا أدمى الجفـون من البكـا
كـريـم رأى الـدنـيـا بـكـفّ لئـيـم

أرى كـل فـدمٍ قـد تبحبـح في الغنى
وذو الـظـرف لا تلقـاه غيـر عـديم[2]

(١) الجرامقة: قوم من العجم كانوا في العراق، وشبّه المخاطبين بهم لجهلهم.
(٢) الفدم: البخيل اللئيم. والأبيات في الديوان، ص ١٥٢.

وكما شكا من الأغنياء وذوو السلطة، شكا أصدقاء الأمس، وعبّر عن ذلك «بفساد الإخوان»، وقصد بهم أولئك الذين لا تثبت لهم مودّة ولا يرعون عهد الإلفة، فيتمنّى لهم الرحيل، ويحنّ إلى المخلصين الذين غابوا، انه لن يرتاح ويهدأ له بال حتى يغيّب الموتُ أولئك الحثالة من الناس يقول:

ويا ليتها الكبرى فتطوي سماؤنا
لها وتُمَدّ الأرضُ مَدّ أديمِ
فما الموت إلاّ عيش كل مبخلٍ
وما العيش إلاّ موت كل ذميمِ

وقال[1] في معنى المماطلة والتسويف، وكان المهجو وعده ومَطَلَه:

صحيفة طابعها اللوم
عنوانها بالبخل مختومُ
أهداكها والخلف في طيّها
والمَطَل والتسويف واللومُ
من وجهه نحسٌ ومن قربه
رجسٌ ومن عرفانه شومُ
لا تهتضم إن كنت ضيفاً له
فخبزه في الجوف هاضومُ

وقال[2] في آخر:

(١) الديوان، ص ١٦٠.
(٢) الديوان، ص ١٦٣.

جئتــه زائــراً فمــا زال يشكــو
لــي حتــى حسبتــه سيــدمّي

ألِفَ اللؤمَ، فيه من كل طـرف
معــرقــاً فيــه بين خــالٍ وعــمّ

في البيتين السابقين، لا يقتصر على هجاء إنسان بعينه، بل يتجاوزه إلى أسرته، إلى أصوله وفروعه، فكلّهم لئام مُغرقون في النذالة.

كان أبو عمر يتضايق من كل ما يقف عائقاً بينه وبين ما يحول دون تحقيق غايته، لذلك تعرّض لحجّاب الحكّام، وتجاوز إلى مَن هم وراء أولئك الحجّاب فليس لؤم الحاجب إلّا من بقية لؤم سيّده، يقول[1]:

مــا بــالُ بــابك محــروســاً ببــوّاب
يحميــه من طــارقٍ يــأتي ومنتــابِ؟

لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد
فــالمقت يحجبــه من غيــر حجــاب

فاعزل عن البــاب مَن قد ظــلّ يحجبه
فــإن وجهــك طلّسم عــلى البــاب

ولكي نُلقي الضوء على مقدرته في الهجاء، وسلاطة لسانه، التي كان الناس يحسبون لها حساباً فيتّقون هجماته نسوق هذا الخبر[2] الذي ذكره ابن السليم محمد بن سعيد، من أن ابن عبد ربّه

---

(١) الديوان، ص ٢٤.

(٢) الخبر والأبيات في الديوان، ص ١١٨.

أثبت عند القاضي حبيب[1] عقداً وجب له التسجيل به، والإشهاد على نفسه بإنفاذه، فطلب له ثبتاً في حكومته، فكتب له ابن عبد ربّه أبياتاً في أعلى جلد رقّ أبيض وترك سائره وأرسل به إلى القاضي، ومن ذلك الشعر:

تبـرّمت الـوثيقـة بـالـوثـاق
وصار الرُّوح منها في التراقي
فلو أنصفتهـا نـظراً وحـزماً
إلى مَن بـالمـدينـة والعـراق

فلما قرأها القاضي قال: ليس هذا من بابي، عليّ بأبي صالح الفقيه فعرض عليه الأمر وقال: ما الذي أراد بترك البيضاء تحت الشعر؟ فقال: إيعادك بأنك إن لم تمضِ حكمه ملأه بهجائك! فقال: نعوذ بالله من ذلك، وعجّل التسجيل له وأرضاه.

خلاصة القول، إن هجاء أبي عمر قليل بالمقارنة مع غيره من الشعراء، أو بمقارنته بغزلياته، وتلك الأبيات ـ على قلّتها ـ تكاد تدور حول معنىً واحد وهو ذمّ البخل والبخلاء، ما يدفعنا إلى الجزم بأن شاعرنا لم يكن عدائياً نحو الناس جميعاً كما صوّره البعض، ولا يحمل في نفسه عقدة نقص، جعلته ينفر من البشرية، فالواقع غير ذلك تماماً، والناظر في هجائه لا يرى إلاّ هجوماً على عيب من

---

(١) القاضي حبيب: هو أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن شبطون اللخمي، أبو القاسم ويُعرَف بالحبيب، وكان من علماء الناس وعقلائهم. تولّى القضاء سنة ٢٩١ هـ أيام الأمير عبد الله، ثم عزل أيام الناصر، ثم أعيد واستمر في القضاء حتى وفاته.

عيوب البشر وهو البخل ولو أنـه كان يتجاوز في بعض الحالات ليعمّم، ولسنا لنقبل ذلك من الناحية الأخلاقية، إنما لم يكن ذلك بشيء إذا قارنته بهجاء ابن الرومي وتصويره السافر لمعايب البشر الخَلقية والخُلقية، أو حتى بهجاء المتنبي الذي أقذع وأفحش في ثلب الأعراض وذكر العورات، وهذا ما لم يفعله ابن عبد ربّه. ومما يزيدنا تمسكاً بما نذهب إليه، أنه كان على علاقة جيدة وطيبة مع شعراء عصره، وله مع كثيرٍ منهم مقارضات وإخوانيات، ولم يهجُ أحداً منهم، وما كان بينه وبين القلفاط، يعتبر حالة شاذّة، والقلفاط هو الذي جرّه إلى قول ما قاله فيه بل هو الذي بدأ في هجائه والاستهزاء به.

ومن إخوانياته ما كان بينه وبين الشاعر ابن أبي عبدة الليثي وكان هذا الأخير كتب إلى أبي عمر قائلاً[١]:

أعـدهـا في تصـابيهـا جـذاعـا
فقـد فضّت خـواتمهـا نـزاعـا[٢]
قلوب يستخفّ بهـا التصـابي
إذا سُكبت لهـا طـارت شَعـاعـا

فأجابه أبو عمر بأبيات منها:

متى تكشف قنـاعـك للتصـابي
فقـد نـاديت مَن كشف القنـاعـا

---

(١) الأبيات في الديوان، ص ١٠٧.
(٢) جذاعاً وجذعاً بمعنى التجديد.

متى يمشي الصديق إليّ فتراً
مشيت إليه مِن كرمٍ ذراعا

ويردّ على أحد أصدقائه، وكان أرسل إليه هدية، فيبعث أبو عمر إلى صاحبه بهدية وكتب إليه:

بعثتَ يا سيدي حلو الأنابيب
عذبَ المذاقة مخضرّ الجلابيب

جـ ـ المدح:

مدائحه قليلة كأهاجيه، ولكنها تتميز بقوتها من حيث المعاني والصور مع رقّة وعذوبة. والعاطفة صادقة، قوية، تتجلّى في كل كلمة وفي كل بيت، ساعده على ذلك شاعريته الفذّة، وثقافته الشاملة، وأهم مدائحه تلك التي قالها في الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد قال عنها بأنها جالَت في الأمصار، وشردت في البلدان حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت. ولكن من المؤسف أنها لم تصل إلينا جميعاً. ومما قاله[1] في أول غزوة غزاها الناصر وافتتح بها سبعين حصناً:

قد أوضح الله للإسلام منهاجاً
والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها
كأنما أُلبِسَت وشياً وديباجا
يا بن الخلائف إن المزن لو علمت
نداك ما كان منها الماء ثجاجا

---

(١) الديوان، ص ٣٥.

أدخلت في قبّة الإسلام مارقة
أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
تملأ بك الأرض عدلاً مثل ما ملئت
جوراً وتوضح للمعروف منهاجا

وقال يمدحه في قصيدة أخرى منها[١]:

طلعت بين الندى والبأس مبتهجاً
هذا بيمناك بل هذا بيسراكا
ضدّان في قبضتي كفّيك قد جمعا
لولاهما لم يطب عيش ولولاكا
يمضي أمامك نصر الله منصلتاً
بالفتح يقصم مَن في الأرض ناواكا

ومما قاله[٢] في الناصر يوم تولّى وبايعه أهل الأندلس:

بدا الهلال جديداً والملك غضٌ جديدُ
يا نعمةَ الله زيدي ما كان فيك مزيدُ
إمامُ عدلٍ عليه تاجان: بأس وجودُ

وإذا تحدّثنا عن مدائحه للناصر، فلا يفوتنا أن نذكر أرجوزته، تلك المطوّلة التي انتظمت غزوات الناصر ما بين سنة ٣٠٠ هـ و٣٢٢ هـ وهي تعتبر سجلاً تاريخياً، تضمنت الأحداث والأيام والمواقع والانتصارات طيلة تلك الفترة، ولكنه أهمل السنوات

(١) الديوان، ص ١٢٧.
(٢) الديوان، ص ٦٣.

اللاحقة، لأسباب لا نعرفها بالضبط ولعلّ السبب الأهم هو أن فترة ما بعد سنة ٣٢٢ هـ لم تكن غنيّة بالانتصارات كي يسجّلها.

ومهما يكن من أمر، فإن الأرجوزة، من الناحية الفنية والأسلوبية، يتنابها بعض الضعف، لجفافها وخلوّها من الصدق وقوة العاطفة، يقول[1] في مغازي سنة ٣١٥ هـ:

فيها غزا معتزماً ببشترا
فجال في ساحتها ودمّرا
ثم غزا طلجيرة إليها
وهي الشجى من بين أخدعيها

وفي غزوة سنة ٣٠٦ هـ يقول[2]:

والتقت الرجال بالرجال
وانغمسوا في غمرة القتال
في موقف زاغت به الأبصار
وقصُرت في طوله الأعمار
وهبّ أهل الصبر والبصائر
فأوعقوا على العدو الكافر

ولعلّ من أجود ما جاء في الأرجوزة، من حيث الصدق، وقوة الانفعال قوله[3]:

---

(١) الديوان، ص ٢٠٣.
(٢) الديوان، ص ١٨٩.
(٣) الديوان، ص ١٨١.

أقــول في أيــام خيــر الـنــاس
ومَن تحلّى بـالـنـدى والـبـأس
ونحن فـي حنــادس كـالـليــل
وفـتنــة مـثــل غـثــاء الـسـيــل
حتى تــولّى عــابــد الــرحمـن
ذاك الأغــرّ مــن بـنــي مــروان
خـليفــة الله الـذي اصـطفـاه
على جميـع الخـلق، واجتبـاه
أحيـا الـذي مــات من المكـارم
من عهـد كعب، وزمـان حـاتم
مكـارم يقصـر عنهـا الـوصف
وغـرّة يحسـر عـنهـا الـطّرف

وممّن مدحهم من الأمراء المنذر بن محمد، الذي كان يجزل العطاء للشعراء، وينشدونه غازياً وراجعاً[1]، يقول فيه[2]:

بـالـمنـذر بـن مـحـمـد شـرُفـت بـلاد الأنـدلسْ
فـالـطيـر فيهـا سـاكن والـوحش فيها قـد أنسْ

فهو بذلك يسير على طريقة العكّي، شاعر المنذر الذي يقول:

بالمنذر المأمون طاب زماننا وبطيب دولته تـطيب الأنفس

أراد في الأبيات السابقة أن يشير إلى أمرين: وهما أن المنـذر قد

(١) تاريخ إسبانية الإسلامية، للسان الدين بن الخطيب، ص ٢٣.
(٢) الديوان، ص ٩٤.

نشر الأمن والهدوء في طول البلاد وعرضها، والأمر الثاني أنه تمكّن من أعدائه، بالإضافة إلى ما يقدّمه من العطاء لتحقيق طيب النفس الذي يتحدّث عنه الشاعر فهذا إشارة إلى جوده.

كذلك مدح عبد الله بن المنذر، قال[1]:

خلافة عبد الله حجّ على الورى
فلا رفث في عصره وفسوق
تجلّت دياجي الحيف عن نور عدله
كما ذرّ في جنح الظلام شروق

وقد اتصل في أيام عبد الله المذكور بحاكم إشبيلية، الذي كان يدين بالطاعة لإمارة قرطبة، إبراهيم بن حجّاج وكان أبو عمر قصده لِما عرفه عن جوده وكرمه ومضاهاته[2] الملوك، وأنه كان مقصداً للشعراء، فمدحه بأبيات[3] منها:

أمِن يُمْنٍ يكون الجود خِلواً
وإبراهيم حاتمها الجوادُ
زيارته لمَن يأتيه حجٌ
ومِدحته رباطٌ أو جهادُ
وما لي في التخلّف عنه عذرٌ
ولي في الأرض راحلةٌ وزادُ

---

(١) الديوان، ص ١١٤.

(٢) تاريخ إسبانية الإسلامية، ص ٣٤.

(٣) الديوان، ص ٥٥.

ومن ممدوحيه في تلك الفترة القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة يقول[1] فيه:

نفسي فـداؤك والأبـطال واقفـةٌ
والموت يقسمُ في أرواحها النقما
شاركتَ صرفَ المنايا في نفوسهم
حتى تحكمت فيها مثلما احتكما
لو تستطيع العلا جاءتك خاضعةً
حتى تقبِّـل منك الكفَّ والقـدَما

وما تجدر الإشارة إليه، أن مدائحه وأهاجيه ترتبط جميعاً بعامل مشترك، ألا وهو إشباع رغباته فيما يطمح إليه من النوال والعطاء، ويقودنا هذا إلى القول بأنه قد استخدم المدح كوسيلة للتكسّب، فضلاً عمّا كان ينظمه بدافع من الإعجاب الصرف بأفعال بعض الذين مدحهم كالناصر وغيره. ولعله من المفيد أن نورد هذا الخبر للدلالة على تكسّبه بشعره: «وقال ابن عبد ربّه: ضاقت بي الحال في بعض الأعياد، فوقع ظنّي على أبي صالح[2]، فصنعت فيه أبياتاً وقصدته بها منصرفه إلى داره بالهاجرة، وهو يتولّى إذ ذاك حكم

---

(١) الديوان، ص ١٥٤.

(٢) أبو صالح: أيوب بن صالح بن سليمان بن هاشم بن غريب، العلاّمة، مفتي الأندلس، المعافري القرطبي، المالكي، وكان بصيراً بالمناظرة في الفقه، حسن الترسيل والبلاغة، وكان مُجانباً للدولة، لكنه وُلّيَ الحسبة فأحسن السّير وكان عفيفاً متصاوناً، توفي سنة ٣٣٢ هـ. سير أعلام النبلاء: ١٥ / ٣٣٠

السوق، فلما عرف صوتي خرج إليّ وهو متفضّل، وكمّه على رأسه، وسألني عن مجيئي، فقلت: زيارتك. قال: ومع ذلك؟ قلت: أبياتاً صنعتها فيك! فتهلّل وجهه فأجلسني، وقال: أنشدني جعلني الله فداك! وأنشدته:

أمصباحُ هذا الدين بعد نبيِّنا
ومَن نوره في الشرق والغرب ساطعُ
ومَن إن مشى ترنو النواظر نحوه
ومن قوله تصغي إليه المسامع
ومَن إن توارى جسمه عاش ذكره
وكان اسمه ما خرَّ لله راكع
أترضى لقلبٍ أنت فيه مصوَّرٌ
ومَن هو سيفٌ في يمينك قاطع
بأن يشتكي داءً وأنت دواؤه
وأنت له برءٌ من الداءِ نافع؟

فقال: لا والله لا أرضى يا أبا عمر.

ثم أدخلني إلى بيته، وأجلسني صدره، وأخرج من تابوت منديلاً بكسوة فيها ظهارة(١)، وغلالة، ورداء، وزوج سروايل، وقلنسوة، وعمامة وزوجا جرموق(٢) جديدان بجوربين، وزوجا خفٍّ جديدان، ثم قال لي: افتح التوييت(٣) الذي وراء ظهرك فاستخرج

(١) ظهارة: ما يظهر للعين من الثياب.

(٢) جرموق: خفّ صغير.

(٣) توييت: تصغير تابوت.

منه الكيس الذي فيه. ففعلت، فأقسم لي «إن كنت أملك زينة غير ما في هذا المنديل، ولا من الناض[1] غير هذه الخمسة والعشرين ديناراً، فاقبل جميعه مُبارَكاً لك فيه، ولا تستقلّه فهو جهدي. فقلت: سبحان الله يا سيدي! إنما كانت الغاية كبش الضحية. فقال لي: وكان يصلح أن أجيز مثل هذا الشعر بكبش، وهو: «ومَن إن تواري جسمه...» البيت، إني إذاً لغبيّ الرأي، خذ خذ: فنهضت مسروراً»[2].

د ـ الوصف:

يعتمد الوصف، فيما يعتمد، على حساسية مرهفة، ينبغي أن يتمتع بها الشاعر، فيرى إذ ذاك ما لا يراه الآخرون، ويسمع ما لا يسمعونه، وينقل الجمال مصطبغاً بألوان ذاته. ومن أكثر فنون الوصف شيوعاً في الأندلس وصف الطبيعة، بما فيها من حدائق وبساتين، ورياضٍ وأزهار، ومياهٍ وأطيار، خصوصاً وأن البيئة الأندلسية غنيّة بمثل هذه الموضوعات، ففيها من الجمال الطبيعي ما يقدّم للشعراء المادة الأوّلية الغزيرة ليصوغوا منها أجمل ألحانهم وأعذبها، وليرسموا لوحاتهم الرائعة التي تحمل توقيع الطبيعة إلى جانب مهارة صقيلة، وإحساس بالجمال لا يضاهيه إحساس آخر في منطقة أخرى من العالم. ولا ريب، أن ابن عبد ربّه قد أدلى بدلوه في هذا الجمال، كيف لا وهو ابن البيئة الأندلسية، مولداً، ونشأةً، وثقافةً، وهو ابن قرطبة المعروفة بما فيها من عناصر جمالية فاتنة

---

(١) الناض والنض: الدرهم والدينار.

(٢) الخبر والأبيات في الديوان، ص١٠٣ و١٠٤.

سواء في رياضها أم جداولها، أم في قصورها فكلّ ما أحاط بالشاعر، هناك يحكي قصة الجمال وها هو يصف الرياض وما فيها من أزهار رعاها الربيع فتفتّحت، وسقتها أمطاره فنَمَت حتى غطّت الروض، فبَدَت الأرض وكأنها فتاة ترتدي أحلى ما لديها من الأثواب الموشّاة. قال[1]:

وروضةٍ عقدت أيدي الربيع بها
نوراً بنور وتزويجاً بتزويج
بملقح من سواريها وملقحةٍ
وناتج من غواديها ومنتوج[2]
توشّحت بملاءٍ غير ملحمةٍ
من نورها ورداء غير منسوج
فألبست حُلَل الموشيِّ زهرتها
وجلّلتها بأنماطِ الديابيج[3]

ويقول[4] من قصيدة يصف فيها قصر الخليفة (منية كنتش):

ترى السوسن المنآد بين رياضها
تلألأ حُسناً في بهار تدنّرا
توشّحن من هذا اليماني مثلما
تأزّرن من ذاك الملاء المزعفرا

---

(١) الديوان، ص ٣٧.

(٢) السواري والغوادي: سحاب الليل والصباح.

(٣) الديابيج: جمع الديباج وهو ضرب من الثياب.

(٤) الديوان، ص ٦٨.

بموشيّة يهدي إليها نسيمها
على مفرق الأرواح مسكاً وعنبرا
سداوتها من ناصح اللون أبيض
ولحمتُها من فاقع اللون أصفرا[1]

وتكاد تكون ظاهرة التشخيص حقيقة ثابتة، لا تفارقه حيث أراد أن يصف الربيع، ورياضه التي تستحيل أمام ناظري الشاعر كالفتيات اللواتي يتخايلن بالبرود الملوّنة المزركشة، تتداخل فيها الألوان من أحمر إلى أبيض إلى ذهبي كأشعة الشمس، إلى زُرقة كزُرقة السماء، فإنك أمام معرض للألوان والجمال الطبيعي الذي يتحدّى، ليس ذلك فحسب، فكما ترى ما يسرّ العين فهنالك في رِياض الربيع ما يمتّع الأنف والأُذن أيضاً قال[2]:

وما روضةٌ بالحَزن حاكَ لها الندى
بُرداً من الموشيّ حمرَ الشقائق[3]
يقيم الدجى أعناقها ويميلها
شعاع الضحى المستنّ في كل شارق[4]
إذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعين
مكلّلة الأجفان صفر الحمالق[5]

---

(١) السدى: من الثوب بخلاف اللحمة وهو ما يمدّ طولاً في النسيج.
(٢) الديوان، ص ١١٥.
(٣) الحَزَن: الأرض الغليظة.
(٤) استنّ: تلألأ.
(٥) الحمالق: جمع الحملاق، وهو ما غطّته الأجفان من العين.

حكت أرضُها لون السماءِ وزانها
نجومٌ كأمثال النجوم والخوافق
بأطيب نشراً من خلائفه التي
لها خضعت في الحُسْن زهر الخلائق

والمعنى نفسه يتكرّر في معظم مقطوعاته في وصف الطبيعة يقول[1]:

وجنّةٌ كالربيع جادَ عليها
مِن حياءٍ لا من حياً وسْميُّ
ووجوهٌ قلبتها كالدنانير
ومثلي لمثلها صيرفي
تتهادى الرياح منها نسيماً
شابَه عنبرٌ ومِسْكٌ ذكيُّ

كما شغف بالطبيعة، شُغِفَ كذلك بمجالس اللهو، والأنس والسَّمَر والخمرة والغناء، فتناول كلاً منها بما أُوتي من حذق الصَّنعة، قال[2] في وصف المجالس:

يا مجلساً أينعت أزاهرُه
يُنسيك أوّلُه في الحُسْن آخرُهُ
كأنما العودُ فيما بيننا ملكٌ
يمشي الهوينى وتتلوه عساكره

---

(١) الديوان، ص ١٧٨.
(٢) الديوان، ص ٧٤.

صوتٌ رشيقٌ وضربٌ لو يراجعه
سجع القريض إذا ضلّت أساطره

فالفرحة عنده، ليس فقط فيما يسمعه من الألحان والضرب على العود، الذي بدا وكأنه ملك والكلّ من حوله يصغون وينصتون، بل في اجتماع الأقران والخلّان لسماع الموسيقى والغناء.

وقال[1] في وصف فتاة:

ذاتُ دلٍّ، وشاحها قَلِقٌ
من ضمورٍ وحجلُها شَرِقُ[2]
بزّت الشمس نورَها وحباها
لحظ عينيه شادنٌ خَرِقُ[3]
ذهبٌ خدّها يذوبُ حياءً
وسوى ذاك كله وَرِقُ[4]

أما الخمرة، فقد لقيت هي أيضاً حظّها، فوصفها وأخذ بطرفٍ من طريقة أبي نواس، ولا سيما في معنى الصفاء والرقّة، وكذلك أخذ عنه طريقته في البحث عن مفاعيلها في النفس والأعصاب والمشاعر. قال[5]:

---

(١) الديوان، ص ١٢٤.
(٢) الحجل: الخلخال.
(٣) حبا: أعطى. الشادن: ولد الغزال. خرِق: سخي.
(٤) الورِق: الفضة.
(٥) الديوان، ص ١٥٦.

رقّت حُشاشتها ورقّ أديمُها
فكأنها شيبت من التنسيم[1]
راحٌ إذا اقترنت عليك كؤوسُها
خلتَ النجومَ تقارنتْ بنجومِ
تجري بأكناف الرياض وما لها
فلكٌ سوى كفّي وكفّ نديمي!
حتى تخالَ الشمسَ يُكسَفُ نورُها
والأرض تُرعد رعدةَ المحمومِ

وقال[2]:

يسعى بها شادنٌ أناملُه
ضربان منها العنّاب والعنمُ[3]
تنسى به العين طرفَها عجباً
ويُدرك الوهمَ عنده الوَهِمُ
كأنّما لاحظَتْ به صنماً
يعبدُه مِن بهائه الصَّنَمُ

ويقول[4] في وصف الأسد:

ليثٌ تطيرُ له القلوب مخافةً
من بين همهمةٍ له وزئيرِ

---

(١) التنسيم: شراب أهل الجنة.
(٢) الديوان، ص ١٦٢.
(٣) العنم: شجرة لها ثمر أحمر. والعنّاب: ثمر احمر أيضاً تشبّه به الأصابع.
(٤) الديوان، ص ٨١.

وكـأنمـا يـومي إليـك بــطرفـه
عن جمــرتين بـجلمـدٍ مـنقــورِ

وكذلك القلم، فقد حظي عند أبي عمر، فهو كالسيف في مضائه، ساحر، ناطق بارع في نقل الأخبار بليغ في خطابه، أبلغ من سحبان وائل، وهو على ضآلة حجمه، ومع تغيّر شكله، عظيم الشأن خطير، قال[1] في صفة القلم:

بـكـفّـه ســاحـر الـبـيــان إذا
أداره فــي صـحـيـفـةٍ ســحــرا
يـنــطق في عــجمــةٍ بـلفـظتـه
نصمُّ عنهــا وتـسمــع البصــرا
إذا امتـطى الخنصرين أذكـر من
سحبــان فيمـا أطــال واختصـرا

أما الحروب، فقد كانـت على قـدم وساق على الحـدود الشمالية، حيث الغزوات تتلاحق في كل عهد، وكان أبو عمر يعايش أحداثها، ويتأثّر بما يحدث في ساحات القتال من بطولات، وما يجري من أهوال، فصوّر المعارك تصويراً حيّاً متحرّكاً، حتى لتخال أنك في قلب المعركة في بعض مقطوعاته، كما صوّر المـوت وهو يحـوم فوق سـاحات الحـرب ويتوثّب كـل لحـظة لينقضّ على المتحاربيـن كالعقبان الكاسرة الجائعـة، إنه مشهـد يسيطر على النفوس فيرعبها، والسيوف تبرق وتلمع فتبهر البصـر، ويرى وميضها الأعمى، يقـول[2]:

(١) الديوان، ص ٨٧.

(٢) الديوان، ص ٧٧.

ومعترك تهزّ به المنايا
ذكور الهند في أيدي ذكورِ
لوامع يبصر الأعمى سناها
ويعمى دونها طرف البصير
وخافقة الذوائبِ قد أناخت
على حمراء ذات شبأ طرير
تحوم حولها عقبان موت
تخطفت القلوب من الصدور
بيومٍ راح في سربال ليل
فما عرف الأُصيلُ من البكور

والملاحظ هنا أن الشاعر سلك طريقَ المشرقيين في تصويره للوقائع الحربية، ولا سيما طريقة أبي تمام، والمتنبي، في صورة المنايا التي تحوم كالعقبان وكذلك الليل الذي يتداخل بالنهار.

وكما وصف الحرب وصف أدواتها، فسنان الرمح شهاب يضيء الليل، وسلاح ماضٍ يقصِّر الآجال ـ على حدّ قوله ـ والسيف يأتي بالموت الذي لا رادّ له. قال(١) يصف الرمح والسيف:

بكل رديني كأن سنانه
شهابٌ بدا في ظلمةِ الليل ساطعُ
تقاصرت الآجال في طول متنه
وعادت به الآمال وهي فجائع

(١) الديوان: ص ١٠٥.

وذي شُطَبٍ تقضي المنايا بحكمه
وليس لما تقضي المنيّة دافع
يسلل أرواحَ الكماة انسلالُه
ويرتاعُ منه الموت والموت رائع

هـ ـ الرثاء:

رثى ابن عبد ربّه ذويه وأولاده، ولا نقع له ـ فيما بين أيدينا من الشعر ـ على غير ذلك. والرثاء بطبيعة الحال فنٌّ لصيق بالوجدان، خصوصاً إذا كان الميت عزيزاً على نفس الشاعر، فيطغى عليه حينئذٍ فيض من العواطف الجيّاشة، وأحرى بهذه العواطف أن تظهر، وبشكل أقوى إذا كان الميت ابناً أو أمّاً أو غيرهما من الأصول.

أُصيب شاعرنا بنكبات كثيرة، كان أعظمها موت اثنين من أولاده، أحدهما شابّ، والآخر طفل صغير، فلم يتمالك نفسه، فضعفت قواه وخارت وهو ينظر إلى ولده والموت يفتّته لحظة بلحظة، يقف أمام هذا المشهد عاجزاً غير قادر على أيّ شيء، وقد عجز الطبّ عن معالجته، لا يملك ذلك الأب المسحوق إلّا أن يتوجّه بالدعاء إلى الله، يطلب العون والمساعدة والعلاج الشافي لولده، وهو إذ يقف ذلك الموقف، يقف وقفة اليائس، وقفة الأب المنسحق الذي سُدّت في وجهه الأبواب إلّا ذلك الباب، فيطرقه بدافع العاطفة الأبوية القوية، وبدافع الإيمان بأن الشافي على الحقيقة هو الله تعالى وليس الطبيب ودواؤه، يقول[1]:

بني، لئن أعيا الطبيب ابن مسلم
ضناك وأعيا ذا البيان المشيع

(١) الديوان، ص ١٠٥.

لأبتهلنّ، تحت الظلام، بدعوة
منّي يدعهـا داعٍ إلى الله يسمعِ
فيا خير مدعوٍّ، دعوتك، فاستمع
وما لي شفيع غير فضلك، فاشفع

ولكن الولد يموت، فيبكيه أبوه بكاءً حارّاً، تتقطّع معه كبده وتذوب حشاه يقول[1]:

وا كبدا قد تقطّعت كبدي
وحرّقتها لواعجُ الكمدِ
ما مات حيٌّ لميت أسفاً
أعذر من والدٍ على ولدِ
يا رحمة الله جاوري جدثاً
دفنت فيه حشاشتي بيدي
يا موت لو لم تكن تعاجله
لكان لا شك بيضة البلد
لو لم أمت عند موته كمداً
لحقّ لي أن أموت من كمدي

لو تتبّعنا الشاعر في المعاني التي عبّر عنها، لوجدناها تقليدية في العمق، وإن اختلفت طريقة إظهارها، فابن الرومي رثى ولده الأوسط واستنزل له الرحمة واستسقى له، كذلك تعجب من نفسه كيف أنها لم تنفطر لموته وكأنه يتمنى لنفسه الموت، خصوصاً وأن

---

(١) الديوان، ص ٦١.

الموت أخذ منه ابنه عندما لمس منه علامات الرجولة والنبوغ. هذه الأفكار عينها ردّدها أبو عمر في هذه الأبيات، وهكذا لم يستطع أن يتخلّص من أثر المشرق في هذا المجال أيضاً.

يقولون: إن الأيام تُنسي، لكن أبا عمر، لم ينسَ مع مرور الأيام والسنوات، فلا يكاد ينسى حتى تضطرم النار في قلبه مرة أخرى، وتتجدّد أحزانه فينعى على نفسه حياته ويقول[1]:

بليت عظامك والأسى يتجدّد
والصبر ينفد والبكا لا ينفدُ
ما كان أحسن ملحداً ضمنته
لو كان ضمّ أباك ذاك الملحدُ

وفي المقطوعة[2] التالية يذكر بعض محاسن ولده ويعبّر عن حزنه العميق:

قصد المنون له فمات فقيرا
ومضى على صرف الخطوب حميدا
حتى إذا بذّ السوابقَ في العلا
والعلم ضُمِّن شِلوه ملحودا
إن الذي باد السرورُ بموته
ما كان حزني بعده ليبيدا

وفاجعته بموت[3] ولده الطفل ليست أقلّ من تلك في نفسه:

---

(١) الديوان، ص ٥٧.
(٢) الديوان، ص ٥٨.
(٣) الديوان، ص ٦٧.

ولـي كـبـدٌ مـشـطورةٌ فـي يـد الأسـى
فتحت الثرى شطر، وفوق الثرى شطرُ
يـقـولـون لـي: صـبّـر فـؤادك بـعـده
فـقلت لـهم: مـا لـي فؤاد، ولا صـبـرُ
وأنـظر حـولـي، لا أرى غـيـر قـبـره
كـأن جميـع الأرض عـنـدي لـه قبـرُ

أما رثاؤه لغير أقاربه فقليل، وإذا وجد، فيفتقر إلى الحرارة، والصدق العاطفي اللذين وجدناهما في مراثيه السابقة.

قال في رثاء عبيد الله بن يحيى[١]:

لقد فجعَ الإسلامُ منه بناصرٍ
كما فُجِعَ الأيتامُ منه بوالدِ
بكته اليتامى والأيامى وأعولَت
عليه الأسارى خائباتِ المواعدِ

خلاصة القول في رثائه، أنه سار فيه على خُطى المشرقيين، فالمعاني إذاً مشرقية في أصولها لكن الشاعر صبغها بشيء من ذاته فجاءت معبّرة عن مأساته مع الحياة، وعذابه الدائم، فكلّ عذاب أهون على الإنسان من مصابه في أولاده.

أما من ناحية الشكل، فالأبيات عموماً بعيدة عن التصنّع والتكلّف، والكلمات تنساب انسياباً عفوياً، لتكشف عن خفايا نفسه المنكسرة.

---

(١) هو أبو مروان، عبيد الله بن يحيىٰ الليثي، من فقهاء قرطبة، وكان عاقلاً جواداً، توفي سنة ٢٩٨ هـ. والبيتان في الديوان، ص ٥٠.

و ـ الـزهد:

تاب ابن عبد ربّه، في أواخر أيامه، وندم على ما فعل في صباه، وكان أفرط في الملذّات، وفي أصناف اللهو المختلفة، وقد عبّر عن توبته بقصائد كثيرة جعل عدداً منها نقضاً مباشراً لمقطوعات قالها في شبابه في الخمرة والمجون والغزل، وسمّى هذه القصائد «الممحصّات»، فتناول كل قصيدة غزلية أو خمرية بأن نظم على وزنها ورويها قصيدة في الزهد والتوبة. ومن ذلك أن خليلاً له كان عزم على الرحيل، وفي صباح اليوم المحدّد للسفر أمطرت السماء، ما منعه من المغادرة، فنظم أبو عمر أبياتاً[1] في هذه المناسبة:

هـلاّ ابتكـرت لبينٍ أنت مـبتكـر
هيهـات يـأبى عليـك الله والقـدرُ
مـا زلتُ أبكي حـذارَ البين ملتهفـاً
حتى رثى ليَ فيـك الريحُ والمـطرُ
يـا بـردَه من حيـا مـزن على كبـدٍ
نيـرانهـا بغليـل الشـوق تستعـرُ
آليتُ ألاّ أرى شـمسـاً ولا قـمـراً
حتى أراك فـأنت الشمس والقمـر!

ثم محصها عندما أسن نادماً على ما قال وفعل بأبيات منها[2]:

يـا عـاجـزاً ليس يعفـو حين يقـتـدر
ولا يقضّـى لـه من عـيشـه وَطَـرُ

---

(١) الديوان، ص ٧.
(٢) الديوان، ص ٧١.

عـاين بقـلبـك إن العـين غـافـلةٌ
عن الحقيـقـة واعلم أنهـا سَقَـرُ
إن الـذين اشتروا دنيـاً بـآخـرةٍ
وشقـوةً بنعيـمٍ سـاء مـا تجـروا
أنت المقـول لـه مـا قلت مبتـدئـاً
هـل ابتكـرت لِبَيْنٍ أنت مبتكـر؟

ومن أقواله[1] في معنى التوبة:

يـا ويلنـا من مـوقفٍ مـا بــه
أخـوف من أن يعدل الحـاكمُ
أُبـارز الله بـعـصـيـانـه
ولـيس لي مـن دونـه راحـمُ
يـا ربّ غفرانـك عن مـذنبٍ
أسـرفَ إلاّ أنـه نـادم

وإن ابن عبد ربّه لم يقتصر على إعلان توبته، بل تعدّى ذلك إلى الوعظ الديني، بفعل تأثّره بأهل العلم وبالفقهاء، فأخذ بعض أقوالهم ونظمها شعراً، من هذا القبيل ما قاله[2] الحسن البصري: «ابن آدم لست بسابق أجلك ولا ببالغ أملك ولا مغلوب على رزقك، ولا بمرزوق ما ليس لك، فعلامَ تقتل نفسك»؟ تناول أبو عمر هذا المعنى وصاغه شعراً، فقال:

لـست بـقـاضٍ أمـلي ولا بـعـادٍ اجـلي

(١) الديوان، ص ١٦٠.
(٢) هذا القول للبصري وما يليه من الأبيات بمعناه في الديوان، ص ١٤٤.

ولا بمغلوبٍ على الرز ق الذي قدّر لي
ولا بمعطي رزقَ غيري بالشقا والعمل
فليت شِعري ما الذي أدخلني في شُغل؟

وهذا الذي نراه من مواعظه يلقي الضوء على سائر ما نظمه في هذا الغرض، وتتميّز هذه المجموعة بسهولة الألفاظ ورقّتها، وقربها من المعجم الديني الأخلاقي، ولو أن بعضها لا يخلو من تكلّف ظاهر كهذه الأبيات أعلاه.

ي ـ الموشّحات:

ذكر بعض المؤرّخين أن لابن عبد ربّه موشحات، منهم ابن بسام في كتابه «الذخيرة»، ولكنِ العقد الفريد يخلو تماماً من أيّ موشّح، ولم يذكر أبو عمر شيئاً عن هذا الموضوع. وقد قال[1] المقّري في حديثه عن الموشحات:

«وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافر القبّري، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربّه صاحب العقد، ولم يُذكَر لهما مع المتأخّرين ذكر وكسدت موشحاتهما». . . ويستفاد من هذا الكلام أحد احتمالين: أولاهما أن ابن عبد ربّه لم يكن له أيّ دور في الموشّحات، والثاني أنه نظم شيئاً في هذا المجال ولكنه اندثر، استناداً إلى ما ذكره المقّري، ويبقى الباب مفتوحاً للبحث في هذا الأمر للوصول إلى نتائج مقنعة.

---

(١) نفح الطيب: ٦/٧.

ك ـ الشعر التعليمي:

قد خصّص أبو عمر في عقده، كتاباً للشعر[1]، درس في بحوره، ووضع أمثلة من نظمه وجعلها مقطعات ضمّنها الشواهد العروضية القديمة، كما نظم أرجوزة ذكر فيها أعاريض الشعر وعِلله وقوافيه وزحافه وأسبابه وأوتاده.

٣ ـ نثــره:

يمثّل العقد الفريد التراث النثري الرئيــس لابن عبد ربّه. وقد ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون» كتاباً آخر له بعنوان «اللباب في معرفة العلم والآداب».

أ ـ العقد الفـريد:

إنه مجموعة ضخمة من الاختيارات في الأشعار والأخبار والنوادر والقصص والأمثال والحِكَم، فضلاً عن طائفة من الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية. وهو يحاكي من حيث مضمونه وأسلوبه ولغته كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة. أما الأسباب الدافعة إلى تأليف الكتاب فإنها بنظرنا علمية، واستدراكاً لما فات سابقيه في هذا النوع من المؤلّفات، قال في مقدمة العقد: «وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرّفة في فنون الأخبار ولا جامعة لجُمَل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي

---

(١) سمّى هذا الكتاب: كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعِلَل القوافي. العقد الفريد: ٥/٤٢٤ وما بعده.

تجري على أفواه العامّة والخاصّة وتدور على ألسنة الملوك والسّوقة»[1].

ينقسم الكتاب إلى خمسة وعشرين كتاباً، سمّى المؤلّف كلّاً منها على اسم جوهرة نفيسة، والكتاب الذي يتوسّط الجميع، أي الثالث عشر هو واسطة العقد. وقد أخذ المؤلّف مادة الكتاب عن الكتب القديمة التي وصلت إلى الأندلس من المشرق، وعلى فترات زمنية مختلفة، وراعى في النقل المحافظة على الأصول من حيث صوغ العبارة ولغتها. وقد رتّب المعلومات والأخبار حسب الموضوعات فجعل لكل علمٍ أو فنٍّ كتاباً، فللأمثال كتاب، وللسلطان كتاب، وللشعر كتاب وهكذا. . . أما دور المؤلّف الأساس في الكتاب فيكاد يقتصر على «فضل الاختيار وحسن الاختصار»، وغير ذلك من أعمال التنسيق والترتيب، فالكتاب مأخوذ من أقوال العلماء والأدباء، وطريقة أخذه لم تكن مشافهةً بل نقلاً عن الأخباريين المشرقيين ـ كما بيّنا ـ وقد صاغ بعض العبارات بلغته وأبقى على البعض الآخر، ومن أمثلة النوع الأول من العبارات ما يتعلّق بأخبار الأندلس، وإن كان ذلك قليلاً، كأخبار الحكّام من أمراء كالمنذر، أو وزراء، أو أخبار الخليفة الناصر. ويدخل في مادة الكتاب أيضاً ما أخذه شفوياً عن شيوخه من أمثال بقي بن مخلد وابن وضّاح. ومما يُعَدّ من صنعه هو، مقدمة الكتاب فضلاً عن المقدمات التي مهّد بها لكل كتاب من الكتب الخمسة والعشرين.

---

(١) العقد الفريد: ١/٤.

ب ـ ومما جاء في مقدمة[1] العقد:

«وتطلبت نظائر الكلام، وأشكال المعاني، وجواهر الحكم، وضروب الأدب، ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه فجعلته باباً على حدته، وقصدت من جملة الأخبار، وفنون الآثار إلى أشرفها جوهراً، وأظهرها رونقاً، وألطفها معنىً، وأجزلها لفظاً، وأحسنها ديباجةً، وأكثرها طلاوةً وحلاوةً».

جـ ـ ومما جاء في مقدمة كتاب[2] السلطان:

«السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا، وهو حمى الله في بلاده، وظلّه الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينتفع ظالمهم، ويأمن خائفهم».

يتّضح مما جاء في هاتين المقطوعتين، أن أبا عمر لم يكن يميل نحو استعمال الجمل الطويلة، بل القصيرة منها، والمتوازنة، وما كان يتكلّف السجع أو البديع من جناس أو طباق، لذلك ترى العبارات سلسلة واضحة خالية من كل تعقيد، فيها «حلاوة وطلاوة». أما المعاني، فهي تستند إلى خلفيّة المؤلّف الثقافية، لذلك يغلب عليها الطابع الديني وهذا واضح في تقديمه لكتاب السلطان، وهو يبتعد في مقدماته جميعاً عن الانفعال أو العواطف، فلم يخرج عن طور الجدّ والعقل، فكان حريصاً إذا أبدى رأياً أن يدعمه بالحجج

---

(١) العقد الفريد: ١/٣.

(٢) العقد الفريد: ١/٧.

المتوافرة عقلياً وشرعياً من خلال الحديث النبوي أو الأيات الكريمة.

د ـ بعض ما قيل في العقد:

قال[1] ابن خلّكان في معرض ترجمته لابن عبد ربّه: «وصنّف كتابه «العقد» وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء».

وقال[2] المقرّي: «وله التأليف المشهور الذي سمّاه «بالعقد» وحماه عن عثرات النقد، لأنه أبرزه مثقف القناة، مرهف الشباة، تقصر عن ثواقب الألباب، وتبصر السحر منه في كل باب».

أما ابن حزم فقد نقل المقرّي قوله[3]: «وتلقّوا قوله بالقبول، كما تلقّوا ديوان أحمد بن عبد ربّه الذي سمّاه «بالعقد» على أنه يلحقه فيه بعض اللوم، لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده...».

٤ ـ قيمة الكتاب الدينية:

يشتمل الكتاب على طائفة من أخبار العلماء والمحدّثين والفقهاء، ومناظراتهم والمسائل التي اختلفوا فيها، كما يحتوي على أبحاث حول الخمرة وما نزل فيها من آيات، وما ورد من أحاديث تحرّمها، وكذلك تناول الكتاب الموسيقى والغناء والملاهي

---

(١) وفيات الأعيان: ١/ ١١٠.
(٢) نفح الطيب: ٧/ ٥٠.
(٣) نفح الطيب: ٣/ ١٥٨.

والفكاهات، وذكر المؤلّف ما ورد في ذلك من الأقوال لجهة الإباحة أو التحريم، ولو أنه يميل إلى مذهب مَن تساهل في الأمر.

وبالإضافة إلى ما في الكتاب من الآيات والأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، فإنه تضمن طائفة من أقوال المحدّثين والرّواة من أمثال عبد الله بن مسعود، والإمام علي، والحسن البصري، والأوزاعي وغيرهم من أصحاب الحديث، ومن أهل المذاهب. كما أنّ في الكتاب ردود للمؤلّف على أهل الأهواء والرافضة من الشيعة الغالية كفرقة السبئية والمختارية والمنصورية وغيرهم.

٥ ـ قيمة الكتاب الأدبية:

«العقد الفريد» كتاب أدب بالدرجة الأولى، لذلك تغلب عليه الصبغة الأدبية، خصوصاً وأن المؤلّف لم يرده كتاب تاريخ أو فقه أو سياسة، بل أراده كتاباً يجمع «جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان»، وقد لجأ فيه إلى الاختصار والإيجاز، ليدفع المَلَل عن القارىء فكان الكتاب «جوهر الجوهر ولُباب اللباب»، ومع ذلك، فإن المؤلّف جعل من الكتاب موسوعة، من حيث شموله للموضوعات المختلفة فهو مصدر للكتّاب وللأدباء، ومرجع للمتعلمين ولرواة الأخبار، وفيه من الأمثال العربية، والفوائد اللغوية والنحوية ما يُغني المتعلّم والمتأدّب، فضلاً عن طائفة كبرى من الأشعار العربية لا تقلّ عن عشرة آلاف من الأبيات، جاءت متفرّقة حسب الموضوعات والأبواب. ولا ننسى ما جاء في الكتاب من القصص والأخبار والطرائف والنوادر حول قطاعات مختلفة من

الناس، كالحمقى والمغفّلين، والبخلاء والممرورين، كما روى أخبار الأدباء والشعراء ومجالس الأدب.

٦ ـ نظرية ابن عبد ربّه في النقد:

أورد أبو عمر بعض آرائه النقدية في عقده، ونستطيع من خلالها أن نطرح تصوّراً لنظرية عامّة، فهو يتوجّه أوّلاً إلى الكتّاب قائلاً(١):

«فتخيّر من الألفاظ أرجحها لفظاً وأجزلها وأشرفها جوهراً وأكرمها حسباً وأليقها في مكانها وأشكلها في موضعها».

أما المعاني فيحدّد إطارها العامّ بقوله(٢):

«وقد رأيتهم شبّهوا المعنى الخفي بالروح الخفي، واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر، وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل، لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متّسقاً، وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثّة. وإنما يدلّ على المعنى أربعة أصناف: لفظ وإشارة وعقد وخط».

ومن خصائصه في النقد أنه لم يكن يداهن أو يُماري حتى مع الذين نقل عنهم، بل كانوا أكثر الناس تعرّضاً لانتقاداته فقد تعرّض لابن قتيبة وقال: «ولم أرَ أعجب من ابن قتيبة في كتابه «تفضيل

---

(١) العقد الفريد: ١٨٦/٤.

(٢) العقد الفريد: ١٨٨/٤. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نظرية اللفظ الشريف للمعنى الشريف، كان الجاحظ قد أطلقها قبل المؤلّف.

العرب»، إنه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في أوله». كما انتقد المبرّد وتهكّم به قائلاً: «إن المبرّد لم يختر لكل شاعر إلاّ أبرد ما وجد له»، وانتهى إلى قوله عنه: «فما أحسبه لحقه هذا الاسم المبرّد إلاّ لبرده».

أما الشعراء، فقد ذكر ما أُخذ عليهم من العيوب، وناقش ما قيل في ذلك، فلم يقبل كل ما ورد، ورفض ما لم يقنعه، وانتقد الذين تجنّوا على الشعراء ولم ينصفوهم واتّهموهم بالتقصير والجهل، فلم يتمكّنوا لضيق آفاقهم من إدراك مرامي الشعراء. يقول: «لكن أصحاب اللغة لا ينصفونهم وربما غلطوا عليهم وتأوّلوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها». وكما انتقد الشعراء وأهل اللغة، انتقد المغنّين والعازفين، لتركهم رقيق الشعر، وتغنّيهم بما لا يليق، ثم تجاوزهم إلى عامّة الناس واتّهمهم بالضعف والتقصير أيضاً في إدراك الفرق بين الرقيق من الشعر وبين ضعيفه، فكانوا يتقبّلون كل ما يسمعونه دون أيّ رفض، ويرجع ذلك إلى قلّة تحصيلهم وضعف جمعهم.

خـــــاتمة

تناولت في هذه الرسالة أحمد بن عبد ربّه، وبيئته الأندلسية، وقد أسهبت قليلاً، في الحديث عن الأحوال العامّة، في البلاد الأندلسية، فلم أتوقف على عصر أبي عمر والأحداث العامّة في القرن الرابع الهجري، بل قدّمت عرضاً سريعاً للأحوال المختلفة في العصور اللاحقة حتى سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك، وتوخّيت من ذلك كله أن أوفّر للقارىء ما يلزمه لرسم صورة متكاملة للعصر إمعاناً في الفائدة. ثم توغّلت في دراسة ابن عبد ربّه فتناولت الجوانب المختلفة في سيرته، وحياته وخلصت إلى تحليل بعض آثاره: شعره ونثره، ولا سيما كتاب العقد، وأنهيت البحث بطائفة من المختارات الشعرية، ولم أضمّنها شيئاً من النثر، لأن نثره ينحصر في المقدمات التي مهّد بكلّ منها لفرش من كتاب العقد، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يبدأ بالنقل دون أيّ تمهيد، ومهما يكن من أمر، أرجو أن أكون قد وُفّقت في ما قدّمت، ولعلّ الباحثين، يكشفون ما اختبأ من آثار مترجمنا الضائعة، فتُتاح لنا الفرصة لكشف الجوانب الأخرى من خصائصه، ولا سيما ما يتعلق منها بنثره.

والحمد لله ربّ العالمين

مختارات شعرية

أرجُوزة مَغَازِي

عَبْد الرحمن النّاصِر لدين الله

سُبْحانَ مَنْ لم تَحوِهِ أقطارُ
ولَمْ تكنْ تُدرِكُهُ الأبصارُ
ومن عَنَتْ لوجهِهِ الوجوهُ
فما لَهُ نِدٌّ ولا شَبيهُ
سبحانَهُ مِن خالِقٍ قديرِ
وعالِمٍ بخَلْقِهِ بصيرِ
وأوّلٍ ليسَ لَهُ ابتداءُ
وآخِرٍ ليسَ لَهُ انتهاءُ
أوْسَعنا إحسانُهُ وفَضْلُهُ
وعَزَّ أن يكونَ شيءٌ مثلَهُ
وجَلَّ أنْ تُدرِكَهُ العُيونُ
أو يحوياهُ: الوهمُ والظنونُ
لكنَّهُ يدرَكُ بالقَريحهْ
والعَقْلِ والأبنيةِ الصحيحهْ
وهذِهِ من أثبتِ المعارِفِ
في الأوجهِ الغامضةِ اللّطائفِ

مَعْرِفَةُ العَقْلِ من الإنسانِ
اثبتُ من معرفَةِ العِيانِ
فالحمْدُ للهِ على نَعْمائِهِ
حَمداً جَزيلاً وعلى آلائِهِ
وبعدَ حَمْدِ اللهِ والتّمجيدِ
وبعدَ شُكرِ المبدىء المُعيدِ
أقولُ في آيامِ خيرِ النّاسِ
ومَن تَحَلّي بالنّدى والباسِ
ومَنْ أبادَ الكُفْرَ والنِّفاقا
وشَرَّدَ الفِتْنَةَ والشِّقاقا
ونَحْنُ في حَنادسٍ كالّليلِ
وفِتنةٍ مثلِ غُثاءِ السّيلِ
حتى تَولّى عابِدُ الرّحمنِ
ذاكَ الأغرُّ من بَني مروانِ
مُؤيّدُ حَكَمَ في عُداتِهِ
سَيفاً يَسيلُ الموتُ من ظباتِهِ
وصَبّحَ المُلكُ مع الهلالِ
فأصبحا نِدَّيْنِ في الجَمالِ
واحتملَ التّقْوى على جَبينهِ
والدينُ والدّنيا على يَمينهِ
قد أشْرَقَتْ بِنُورِهِ البلادُ
وانقَطَعَ التّشغيب والفَسادُ

هـذا عـلى حيـنَ طغـى الـنّـفـاقُ

واستفـحـلَ النـكّـاثُ والمـرّاقُ(١)

وضـاقَـتِ الأرضُ على سـكـانهـا

وأذكـتِ الحـربُ لـظى نـيـرانِهـا

ونـحـنُ فـي غَـشـواء مُـدْلَـهِـمّـهْ

وظُلمـةٍ مـا مثلُهـا مِن ظُـلـمـهْ!

تـأخُـذنـا الصَّيْحَـةُ كـلَّ يَـومِ

فَـمَـا تَـلَذُّ مُـقـلَةٌ بـنَـوْمِ

وقـد نصَلّي العيدَ بـالنّـواظِـرِ(٢)

مـخـافَـةً مِـنَ الـعـدوّ الـثـائـرِ

حتى أتـانـا الـغَـوثُ من ضـيـاءِ

طَـبّـقَ بـيـنَ الأرضِ والـسّـمـاءِ

خـليـفَـةُ الـلّـهِ الـذي اصْـطفـاهُ

عـلى جميـعِ الـخـلقِ واجْـتَـبـاهُ

من مـعـدن الـوحيِ وبيت الحكمـهْ

وخيـر مَـنـسـوبٍ إلى الأئِـمّـهْ

---

(١) النكاث: جـ ناكث. والمراق: جـ مارق. يشير إلى المتوثّبين والمتآمّرين الذين خرجوا على طاعة الدولة المروانية. وانظر البيان المغرب، لابن عذاري ٢ : ١٥٨.

(٢) النواظر: أصلها النواظير، جـ ناظور بمعنى ناطور (بالظاء المعجمة والطاء المهملة) وهو الحارس. يشير إلى صلاة أهل قرطبة صلاة العيد في ظاهر المدينة. وكان المتوثبون ربما وصلوا إلى أرباض قرطبة ونواحيها.

تكـلّ عن معـروفـهِ الجنـائبُ[1]
وتَستـحي من جـوده السـحـائبُ
فـي وجـهــه مــن نُـورِه بُـرْهــانُ
وكـفُّـهُ تَـقْـبِـيـلها قُـرْبـانُ
أحيـا الـذي مـاتَ من المَكـارمِ
من عهـد كعبٍ وزمـان حـاتمِ[2]
مكـارمٌ يقـصُـرُ عنـهـا الـوَصفُ
وغُـرّة يـحسـرُ عـنهـا الـطّرْفُ[3]
وشيمـةٌ كـالصّـابِ أو كـالمـاءِ[4]
وهِـمّـةٌ تَـرْقى إلـى السّمـاءِ
وانــظر إلى الرّفيـعِ من بنيـانـه
يُـريك بِـدعـاً من عـظيمِ شـأنِـهِ
لــو خـايَـلَ البحرُ نَـدَى يـديـهِ
إذا لـجّـتْ عُـفـاتُـهُ إلـيـهِ[5]
لـغـاضَ أو لـكـاد أن يَـغـيـضـا
ولاستَحى من بـعـدُ أن يَفِيضـا

(١) الجنائب: جـ جنوب، وهي ريح تخالف ريح الشمال. والمعروف: الصنيعة.
(٢) كعب بن مامة وحاتم الطائي من أجواد العرب، ويُضرَب بهما المثل.
(٣) حسر البصر: كلّ وتعب.
(٤) الصاب: شجر مرّ، له عُصارة بيضاء بالغة المرارة.
(٥) المخايلة: المباراة. ولجت: أصلها لجأت.

مَنْ أسبغ النعمى وكانتْ مَحْقا
وفتّق الدّنيا وكانت رَتْقا[1]
هو الذي جَمَعَ شَمْلَ الأمّهْ
وجابَ عنها دامساتِ الظُّلمهْ
وجَدَّد المُلك الذي قد أخلقا
حتى رسَت أوتادهُ واستوسقا
وجَمّعَ العُدَّةَ والعَديدا
وكثّفَ الأجنادَ والحُشودا

أول غزاة غزاها أمير المؤمنين عبد الرّحمن بن محمّد:

ثمّ انتحى جَيّانَ[2] في غزاتِهِ
بعسكر يَشْعُرُ من حُماتِهِ
فاستنزل الوحش في الهِضابِ
كأنما حُطّتْ من السّحابِ
فأذْعَنَتْ مُرّاقُها سراعا
وأقبلتْ حُصونها تَداعى
لمّا رماها بسُيوف العَزْمِ
مشحوذَةً على دُروعِ الحَزْمِ

(١) الرتق: ضدّ الفتق.
(٢) جيان: مركز كورة تُعرف بكورة جيان، ولها أقاليم عدّة تابعة لها. قال ابن سعيد: إنها منطقة جليلة بمتوسطة الأندلس بين غرناطة، وطليطلة، ومرسية. ومدينة جيان من أعِظم مدن الأندلس في المنعة.

ومن أرجوزة المغازي سنة إحدى عشرة وثلاث مئة:

وبعدها غزاة إحدى عَشَرَهْ
كم نبّهتْ من نائمٍ في سكرَهْ
غَزَا الإمامُ ينتحي ببُشْتَرا
في عسكرٍ أعظمْ بذاكَ عسكرا
فاحْتَلَّ مَن ببُشْتَرا ذُراها
وجالَ في «شاطٍ» وفي سواها[1]
فخرّبَ العمرانَ مَن ببشترِ
وأذعنتْ شاطُ لربّ العسكرِ
فأدخلَ العُدّةَ والعَديدا
فيها ولم يتركْ بها عَنِيدا
ثمّ انتحى بعدُ حصونَ العُجمِ
فداسَها بالقضمِ بعدَ الخَضمِ
ما كانَ في سواحلِ البحُورِ
مِنها وفي الغاباتِ والوُعورِ
وأدخلَ الطّاعةَ في مكانِ
لم يدرِ قَطُّ طاعةَ السُّلطانِ
ثمّ رمى الثّغرَ بخيرِ قائدِ
وزادهُمْ عنهُ بخيرِ ذائدِ[2]

(١) حصن شاط، وبه سُمّيت الغزوة.

(٢) يريد بالثغر هنا الثغر الأقصى. غزاه القائد عبد الحميد بن بسيل. وكان شانجة ملك نبره قد أوقع بمدينة بقيرة، وأخذ صاحبها ابن لبّ وقتلهم جميعاً، فاستردّ القائد ابن بسيل بغزوته الثغر وأخذ تطيلة.

بِـهِ قَـمـا الله ذوي الإشـراكِ
وأنـقَـذَ الـثُّـغْـرَ مـن الـهَـلاكِ
وانـتـاشَ من مَـهْـواتـهـا تُـطِيلَهْ
وقـد جـرتْ دمـاؤهـا مَـطْلُولَـهْ
وطَـهَّـرَ الـثَّـغْـرَ ومـا يَـلـيـهِ
مـن شِيعـةِ الكُـفـرِ ومـن ذَويـهِ
ثـمّ انْثَـنى بـالـفَـتْـحِ والـنّجـاحِ
قـد غَـيّـرَ الفَـسَـاد بـالـصَّـلاحِ

وقال ـ وأنشده لنفسه في العقد في باب عقده لقولهم في الأقلام ـ (من المنسرح):

إذا أدارَتْ بَـنـانُـه قَـلَـمـاً
لـم تـدْرِ لـلشُّبْـهِ أيُّـهـا الـقَـلَم!

وقال ـ وأنشده لنفسه في أثناء باب عقد لما قيل في البُخلاء ـ (من الخفيف):

جَـعَـلَ الله رزقَ كُـلِّ عـدوٍّ
لـي بكـفٍّ لبعضِ مَنْ لا أُسـمّـي
كفّ مَنْ لا يَهُـزّ عِـطْفَيْـهِ يـومـاً
لـمَـديـحٍ ولا يُـبـالـي بِـذَمِّ
يَـتَـلَـقّـى الـرجـاءَ مِـنْـه بـوجْـهٍ
راشـحِ الـخَـدِّ والـجَـبـيـنِ بِـسُـمِّ

جِئْتُه زائراً فما زالَ يَشْكُو

لِيَ حتى حَسِبْتُه سَيُدَمّي

أَلِفَ اللّؤمَ، فيهِ مِنْ كُلّ طَرْفٍ

مُغْرِقاً فيهِ بين خالٍ وعَمٍّ

قد نَهاني النَّصيح عَنْه مِراراً

بأبي أنْتَ مِنْ نَصيحٍ، وأُمّي!

وقال (من المتقارب):

أيا وَيْحَ نَفْسي ووَيْل أُمِّها

لِما لَقِيَتْ مِن جَوى هَمِّها

فَديتُ الّتي قَتَلَتْ مُهْجَتِي

ولم تَتّقِ اللّهَ في دَمِّها

أغُضُّ الجفونَ إذا ما بَدَتْ

وأُكَنّي إذا قِيلَ لي سَمِّها

أُداري العُيونَ وأخشى الرَّقيبَ

وأرصد غَفْلَةَ قَيِّمها

سَبَتْني بجيدٍ وخَدٍّ ونَحْرٍ

غداةَ رَمَتْني بأسْهُمِها

وقال في معنى «الإقلال» (من الطويل):

أعاذل قد آلَمْتِ ويلكِ فَلُومي

وما بلَغَ الإشراكَ ذنبُ عَديمِ

لقد أسقطتْ حقّي عليكِ صبابتي

كما أسْقَطَ الإفْلاسُ حَقَّ غَريمِ

وأعذر ما أدمى الجُفونَ من البُكا

كريمٌ رأى الدّنيا بكفّ لَئيمِ

أرى كلّ فَدْمٍ قد تبَحْبَحَ في الغِنى

وذو الظَّرْفِ لا تَلقاهُ غيرَ عَديمِ

وقال في معنى «فساد الإخوان» (من الطويل):

أبا صالحٍ جاءتْ على النّاسِ غفلةٌ

على غَفْلَةٍ بانَتْ بكلّ كَريمِ

فليتَ الألى بانوا يُفادون بالألى

أقاموا فَيَفْدى ظاعِنٌ بمقيمِ

ويا ليْتها الكبرى فتُطوى سماؤنا

لَها وتُمدُّ الأرضُ مَدَّ أديمِ

فما الموتُ إلاّ عيشُ كلّ مبَخّلٍ

وما العيشُ إلاّ موتُ كلّ ذَميمِ

وقال في معنى «ذمّ الدّنيا وذِكر الموت» (من الطويل):

ألا إنّما الدّنيا كأحلامِ نائِمِ

وما خيرُ عَيشٍ لا يكونُ بدائمِ

تأمّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمسِ لَذّةً

فأفنَيْتَها هلْ أنْتَ إلاّ كحالمِ

وما الموتُ إلّا شاهِدٌ مثلُ غائبٍ
وما الناسُ إلّا جاهِلٌ مثلُ عالِمِ

وقال في معنى «طلب الرغائب واحتمال المغارم» (من مجزوء الرّمل):

خُتِمَتْ فَارةُ مسك
فأبَتْ إلّا التذَكّي[1]
ليسَ يَخْفَى فَضْلُ ذي الفضْـ
ـلِ بزُورٍ وبإفْكِ
والّذي برّز في الفَضْـ
ـلِ غَنِيٌّ عَنْ مُزَكّي
رُبّما غُمّ هِلالُ الفِـ
ـطْرِ في لَيْلَةِ شَكّ
ثم جلّى وَجْهَهُ النّو
رُ فجلّى كلَّ حَلْكِ[2]
إنّ ظَهر اليَمّ لا تَرْ
كَبُهُ من غيرِ فُلْكِ
ونِظامُ الدرِّ لا تَعـ
ـقِدُهُ من غيرِ سِلْكِ

(١) فأرة المسك: وعاؤه. و: مسك ذكي وذاك وذكية: ساطع ريحه.
(٢) الحلك (بفتح الحاء واللام): شدّة السواد، وسُكّنت اللام للشعر ضرورة.

لـيسَ يَصْـفـو الـذهـبُ الإبـ
ـريـزُ إلَّا بـعـدَ سَـبْـكِ

هـذه جُـمْـلَةُ أمـثـا
لٍ فَـمَـنْ شـاءَ فَـيَـحْـكـي

أبـطلتْ كـلُّ يـمـانـيٍّ
وشـامـيٍّ ومَـكّـي

لَـيْسَ ذا مـنْ صَـوْغِ غَـبْـ
ـنِيٍّ ولا من نـسـجِ عَكّـي[1]

قال ابن حيّان في المقتبس عند ذكر شعراء الأمير عبد الله: «ومن أحسن ما امتدح به ابنُ عبد ربّه الأمير عبد الله بن محمد لأول جُلوسه في الخلافة[2] قوله في قصيدة لـه مفضّلة، أوّلها» (من الطويل):

أرقـتُ وقـلبـي عـنـكَ لـيس يُـفـيـقُ
وأسـعـدتَ أعـدائي وأنـتَ صَـدِيـقُ

وصدّ الخيالُ الواصِلي منكَ في الكرى
بـصـدِّك عـنّـي، فـالـفـؤادُ مَـشُـوقُ

---

(١) العيني: (أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم العنزي) الشاعر؛ وأكثر شعره حِكَم وأمثال، توفي ١٥٥. و«عكّي» نسبة إلى عك باليمن.

(٢) يريد: أول جلوسه في كرسي الإمارة؛ ومعلوم أن أول مَن تلقّب بالخلافة من الأمراء المروانيين عبد الرحمن الناصر لدين الله.

تعلَّمَ منكَ الهجرَ لمَّا هجرْتَهُ
فليسَ لهُ في مُقلتَيَّ طَريقُ

وتأبى عليَّ الصَّبْرَ نفسٌ كئيبةٌ
وقلبٌ بأصنافِ الهمومِ رفيقُ

سهادٌ ودمْعٌ بالهُمومِ توكّلا
فذا مُوثَقٌ فيها وذاكَ طَليقُ

رَشاً لو رآهُ البدرُ يشرقُ وجهُهُ
لأظلَمَ وجهُ البدرِ وهو شَريقُ

دقيقٌ فرندِ الحُسنِ أمّا وشاحهُ
فَيَهْفو وأمّا حِجْلُهُ فيضيقُ[1]

يغضّ زمانَ الوصلِ لمّا تطلّعتْ
لوامعُ في رأسي لهنَّ بريقُ

سلامٌ على عهدِ الشّباب الذي مضى
إذ العيشُ غضٌّ والزمانُ أنيقُ

وإذْ لِبناتِ الخِدرِ نحوي تَطَلُّعٌ
كما لَمعتْ بينَ الغَمامِ بروقُ!

عَطابيلُ كالآرام أمّا وجوهُها
فدُرٌّ ولكنّ الخُدودَ عَقيقُ[2]

(١) الحجل: الخلخال.
(٢) العطبول: المرأة الفتيّة الجميلة الممتلئة.

سفرْنَ قناعَ الحُسنِ عنها فأشرقتْ
مصابيحُ أبوابِ السّماءِ تَروقُ
أشْبَه نعاجِ الرّملِ هَلْ مِنْ بَقِيّةٍ
ولو سَببٌ مِنْ وصلكنَّ دَقيقُ
لقد بَتَّ حَبْلَ الوصلِ وهو وثيقُ
حُسامٌ مِنَ الهجرانِ ليسَ يَليقُ
فلا نَيْلَ إلاّ أنْ أُخالِسَ لحْظَةً
ولا وصلَ إلاّ أن ينمّ شهيقُ
وأن تبسطَ الآمالُ في ساحةِ العُلا
رجاءٌ يداوي الشّوق وهو يَشوقُ
وإنّي لأبدي للوشاةِ تَبَسُّماً
وإنسانُ عَيني في الدّموعِ غريقُ

أطالَ النّسيبَ وأرقّهُ ثم خرج إلى المدح، فقال:

ولي قولةٌ في الناس لا أبتغي بها
من النّاس إلاّ أن يُقالَ صديقُ
ألا تَشكرونَ اللّهَ إذْ قامَ فيكُمُ
إمامُ هُدًى في المكرماتِ عَريقُ
وأحكمَ حكمَ اللّهِ بينَ عبادِهِ
لسانٌ بآياتِ الكِتاب طَليقُ
خلافة عبدِ اللهِ حجٌّ عنِ الوَرى
فلا رفثٌ في عصرِها وفسوقُ

إمامُ هُدًى أحيا لنا مهجةَ الهُدى
وقد جشأتْ للموتِ فهي تفوقُ(١)
حقيقٌ بما نالتْ يداهُ منَ العُلى
وما نالَنا منها بهِ فحقيقُ
يدبّرُ مُلْكَ المَغرِبَينِ وإنّهُ
بتدبيرِ مُلْكِ المشرِقَينِ خَليقُ!
تجلّتْ دياجي الحَيفِ عن نورِ عدلِه
كما ذرّ في جنحِ الظّلامِ شُروقُ
وثقّف سهمَ الدّينِ بالعَدلِ والتّقى
فهذا لهُ نصلٌ وذلك فُوْقُ(٢)
وأعلقَ أسبابَ الهُدى بضميرِهِ
فليس لَهُ إلاّ بهِنّ عُلُوقُ
وما عاقَهُ عنها عوائِقُ ملكه
وأمثالُهُ عن مِثْلِهِنّ تَعُوقُ
إذا فتحتْ جَنّاتُ عَدْنٍ وأُزلِفَتْ
فأنْتَ بها للأنْبِياءِ رَفيقُ

قال: وهي طويلة بعيدة جدّاً، وإحسانه فيها سائرٌ مشهور.

---

(١) الفواق: ما يأخذ المحتضر عند النّزع، وجشأت نفسه وجاشت من حزن أو فزع.

(٢) الفوق: موضع الوتر من السهم.

قلت: ونقل الثعالبي في اليتيمة من القصيدة ثلاثة أبيات: آخر بيت من القسم الغزلي المختار هنا، وبيتين معه، ولم يردًا في اختيار ابن حيّان، ونسقها:

ألا بـأبي مَنْ قلبُـهُ غيـر مُشفقٍ
علـيَّ ولـي قـلبٌ عـليـهِ شـفيـقُ
وإنّـي لأبـدي لـلوشـاةِ تـبسُّـمـاً
وإنسـانُ عيني في الـدمـوعِ غـريقُ
وكم شـافهتني للصَّبـا أريحيَّـةٌ
ومـازَجَ ريـقـي لـلأحـبَّـةِ ريـقُ

وقال في غرض «وصف الرِّياض» (من الطويل):

ومـا روضـة بـالحَزْن حـاكَ لهـا النـدى(1)
بُـروداً مـن المَـوشِيِّ حمـرَ الشَّقـائقِ
يقيـمُ الـدُّجى أعنـاقَهـا ويُـميلهـا
شعاعُ الضّحى المستنُّ في كلّ شارقٍ(2)
إذا ضـاحكَتْهـا الشمس تَبكي بـأعينٍ
مكلّلةِ الأجفـان صُفـر الـحَمـالقِ(3)

---

(1) الحزن: المكان الغليظ، وهو الخشن. وجعل الشاعر الروضة في «حزن» من الأرض لتكون بعيدة عن الماء فلا ترعاها الشّاء ولا الحُمُر ـ الوحشية ـ فتبقى ممرعة، نضرة.

(2) المستنّ: يريد المشرق المتلألىء، وقال في القاموس استنّ الشراب: (التمع في حركة).

(3) حملاق العين: ما غطّته الأجفان من بياض المقلة.

وقال في ذمّ الفقر (من الطويل):

فَـرَرْتُ من الفَقـرِ الـذي هـو مُـدركي
إلى بُخـلِ محـظُورِ النَّـوالِ مَنُـوعِ

فـاعْقبني الحِـرمـانُ غِبَّ مَـطامـعي
كـذلـك مَنْ تَلْقـاهُ غيـرُ قَنـوعِ

وغَيْرُ بـديـعٍ منعُ ذي البخـلِ مـالَهُ
كمـا بذْلُ أهـلِ الفَضْـلِ غيـرُ بـديـعِ

إذا أنت كشّفْتَ الـرجـالَ وجـدتَـهُمْ
لأعـراضِـهـمْ مـن حـافظٍ ومُضـيـعِ

قال: «ومن قولنا في الحُروب»(من مجزوء البسيط):

وحَـوْمَـةٍ غـادرتَ فُـرسـانَـهـا
في مَبْـرَكٍ للحَـربِ جَعـجـاعِ(١)

مُسْتَلْحَمٍ بـالمـوتِ، مُسْتَشْعِـرٍ
مُـفَـرِّقٍ لـلشَّـمْـلِ، جَـمّـاعِ

وبلدَةٍ صَحْصحتَ منهـا الـرّبـا
بِـفَـيْـلَقٍ كـالسَّـيْـلِ دفّـاعِ(٢)

---

(١) الجعجاع: الموضع الضيق الخشن.

(٢) الصحصح والصحصاح: ما استوى من الأرض.|والرباج:|ربوة ما ارتفع منها.

كأنما باضَتْ نَعامُ الفَلا

منهمْ بهامٍ فوقَ أدْراعِ [1]

تَراهُمُ عِنْدَ احتماسِ الوَغى

كأنَّهُمْ جِنٌّ بأجْراعِ [2]

بكلِّ مأثورٍ على مَتْنِهِ

مثلُ مَدَبِّ النَّمْلِ في القاعِ [3]

يَرتَدُّ طَرْفُ العَينِ من حدِّهِ

عن كوكبٍ للموتِ لَمَّاعِ

وقال (من مجزوء الرَّمل):

ما لِلَيْلى تَبَدَّلَتْ بعدَنا وُدَّ غَيْرِنا

أزْهَقَتْنا مَلامَةً بعدَ إيضاحِ عُذرِنا

فَسَلَوْنا عَنْ ذِكْرِها وتَسلَّتْ عَن ذِكرِنا

لمْ نَقُلْ إذْ تَحرَّمَتْ واسْتَهَلَّتْ بِهَجْرِنا

«ليتَ شِعْري ماذا ترى أمْ عَمرٍو في أمرِنا؟» [4]

وقال (من مجزوء الرَّمل):

يا هِلالاً قَد تجلّى في ثيابٍ مِنْ حَريرْ

---

(١) أدراع: جـ درع، و«دروع».

(٢) أجراع: جـ أجرع، الأرض ذات الحزونة، أو هي الرملة السهلة المستوية.

(٣) القاع: الأرض السهلة. والمأثور: السيف الذي في متنه أثر (وهو فرنده).

(٤) البيت من شواهد العروض (المعيار: ٧٩).

وامــيــراً بِهَــواهُ قــاهــراً كــلَّ أمــيــرْ
مــا لِخَــدَّيْــكَ اسْتَعــارا حُـمــرَةَ الــوردِ النَّضــيــرْ؟
ورســومُ الــوَصــلِ قَــدْ ألْــبَسَــتْهــا ثــوْبَ دُثُــوزْ
«مُــقْــفِــراتٌ دارِســاتٌ مثــلُ آيــاتِ الــزَّبــورْ»[1]

وقال (من الرّجز):

لــم أدرِ جِنّــيٌّ سَبــانــي أمْ بَشَــرْ
أم شمسُ ظُهــرٍ اشرقتِ لي أم قَمــرْ
أمْ نــاظِــرٌ يُهــدي المَنــايــا طَــرفُــهُ
حتّى كــأنَّ المــوتَ منــهُ فــي النّــظرْ
يُحْيي قــتيــلاً مــا لــهُ مِنْ قــاتِــلٍ
إلاّ سِهــامُ الــطّرْفِ رِيْشَتْ بــالحَــوَرْ
مــا بــالُ رسمِ الــوَصْــلِ أضْحى دائِــراً
حتى لــقــدْ أذكَــرتَــني مِــمّــا دَثَــرْ
«دارٌ لِــســلمــى إذ سُــليــمــى جــارةٌ
قَفــراً تُــرى آيــاتُهــا مثــلَ الــزُّبُــرْ»[2]

وقال (من الرّمل):

(١) البيت في المعيار: ٦٦.
(٢) البيت من شواهد العروض.

أنــا فــي اللّذّاتِ مـخلوعُ الـعِـذارِ
هــائمٌ في حُبِّ ظَبيٍ ذي احـورارِ
صُـفْـرَةٌ فـي حُـمْـرَةٍ فـي خـدِّهِ
جـمـعـتْ روضــةَ وردٍ وبَـهــارِ
بــأبــي طــاقَــةُ آسٍ أقْــبَـلَـتْ
تَـتَـثَـنّـى بـيـنَ حِـجْـلٍ وسِـوارِ
قــادَني طَــرْفي وقَـلْبي لـلـهَـوى
كيفَ مِن طَرفي ومِن قَلبي حذاري
«لـو بِغَـيـرِ الـمـاءِ حَلْقي شَـرِقٌ
كنتُ كالغَصّانِ بالماء اعتصاري»[1]

وقال (من المنسرح):

يـا مَـلِكـاً يَـزدهي بـهِ الـمِنْـبَـرْ
والمسجـدُ الجـامـعُ الـذي عـمَّـرْ
خـلـيـفـةُ الـلّـهِ فــي بَــرِيَّــتِـهِ
يُسِـرُّ للنّـاسِ مـثـلَ مـا يَجـهَـرْ
يـا قمـرَ الأرضِ إنْ تَغِبْ فلقـد
أقـمتَ لـلـنّـاس كـوكـبـاً يُـزهَـرْ
مـا فـرحَ النّـاسُ مثـلَ فـرحتِهمْ
لـمـا أقـبـلَ الأديـبُ واسـتُـوزِرْ

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي من أبيات يخاطب بها النعمان بن المنذر.

وابتهجَ المُلْكُ حينَ دَبّرَهُ
عينُ الإمامِ التي بها يُبصرْ
قطبٌ عليهِ المَدارُ أجمعُهُ
في الأمرِ والرأي كلما دبّرْ
لم يزلِ البيْتُ طولَ غَيْبَتِهِ
أعمى، فلمّا استوى بهِ أبصَرْ

وقال (من منهوك المنسرح):

أقْصَرْتُ بعضَ الإقصارْ عن شادنٍ نائي الدّارْ
صَبّرني لمّا سارْ ولمْ أكُنْ بالصّبّارْ
وقالَ لي باسْتِعبارْ «صبراً بني عبد الدّارْ»[1]

وقال (من مجزوء البسيط):

يا طالباً في الهوى ما لا يُنالْ
وسائلاً لم يُعفَ ذُلَّ السّؤالْ
ولّتْ ليالي الصّبا محمودةً
لو أنها رجعتْ تلك اللّيالْ!
وأعقبتْها التي واصلْتُها
بالهجرِ لمّا رأتْ شيبَ القَذالْ

---

(١) من رجز لهند بنت عتبة، قالته يوم أُحُد تخاطب به بني عبد الدار، وهم أصحاب لواء مشركي قريش.

لا تـلتمسْ وُصـلةً مـن مـخلِفٍ
ولا تـكـنْ طـالبـاً مـا لا يُـنـالْ
«يـا صـاحِ قـد أخلفتْ أسماء مـا
كانت تمنّيك من حُسْن الـوصالْ»[1]

وقال (من الكامل):

حـالَ الـزّمـانُ فـبـدّلَ الآمـالا
وكسـا المَشيبُ مَفـارقـاً وقَـذالا
غنيتْ غَـواني الحيّ عنك، وربمـا
طَـلعتْ عـليـكَ أكِلّةً وحِـجـالا
أضحى عليـكَ حـلالُهُنّ محـرّمـاً
ولقـد يكـونُ حـرامُهُنّ حَـلالا!
إنّ الكـواعبَ إن رأيْنَـكَ طـاوِيـاً
وصْـلَ الشّبابِ طَـوينَ عنكَ وِصـالا
«وإذا دعـونَـكَ عـمّـهُـنّ فـإنّـهُ
نسبٌ يـزيـدُك عنـدهنّ خبَالا»[2]!

---

(١) أورد ابن عبد ربّه هذه القطعة مثالاً لعروض بحر البسيط المجزوء، والضرب المذال. وتقطيعه: مستفعلن فاعلن مستفعلن: مستفعلن فاعلن مستفعلان. وورد البيت الأخير وهو من أبيات العروض في بعض المصادر «من حسن وصال» وساقوه مثالاً على مجزوء البسيط، المطوي المذال، ووزن ضربه «مفتعلان». انظر الإقناع: ٢٠، والوافي: ٦٦.

(٢) البيت للأخطل، ديوانه، ص ٤٣.

وقال في غرض الشيب (من البسيط):

جارَ المشيبُ على رأسٍ فغيَّرَهُ
لمّا رأى عندنا الحكّام قد جاروا
كأنّما جنُّ ليلٍ في مَفارِقهِ
فاعتاقهُ من بَياضِ الصُّبحِ إسْفارُ

وقال في العود ـ عود الغناء ـ (من البسيط):

يا مجلساً أينعتْ منهُ أزاهِرُهُ
يُنسيكَ أوَّلهُ في الحُسنِ آخرُهُ
لم يَدْرِ هل باتَ فيهِ ناعماً جَذِلاً
أو باتَ في جَنّةِ الفردوسِ سامرُهُ
والعُودُ يَخْفِقُ مَثْناهُ ومَثلثُهُ
والصُّبْحُ قد غرّدتْ فيهِ عصافرُهُ
وللحجارةِ أهْزاجٌ إذا نَطقَتْ
أجابَها من طيورِ البرِّ نافِرُهُ
وحَنَّ من بينِها الكُثبانُ عن نغمٍ
تُبدي عن الصَّبِّ ما تخفي ضمائرُهُ
كأنّما العودُ فيما بَيْننا مَلِكٌ
يمْشي الهُوينى وتَتلوهُ عَساكرُهُ
كأنّه إذْ تمطّى وهي تَتْبَعهُ
كِسرى بنُ هرْمزَ تقفوهُ أساوِرُهُ

صوتٌ رشيقٌ وضربٌ لو يراجِعهُ
سجْعُ القريضِ إذا ضلّتْ أساطِرُهُ
لو كانَ زِرْيابُ حَيّاً ثم أُسمِعَهُ
لماتَ من حسدٍ إذْ لا يُناظِرُهُ!

وقال (من البسيط):

نورٌ تولّدَ من شمسٍ ومن قمرِ
في طَرْفِهِ قَدَرٌ أمضى من القدَرِ[1]
أصلى فؤادي بلا ذنبٍ جَوى حُرَقٍ
لم يُبقِ من مُهجتي شيئاً ولم يَذرِ
لا والرّحيقِ المصفّى من مَراشِفِهِ
وما بخَدَّيْهِ من وردٍ ومِن طُرَرِ
ما أنصفَ الحَبُّ قلبي في حكومتِهِ
ولا عفا الشّوقُ عنّي عَفْوَ مُقتدِرِ

ولأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه في وصف مُنيةِ كِنْتُش هذه لأول انبعاثه في قول الشّعر قصيدة طويلة مُستحسنة أوّلها (من الطويل):

ألِمّا على قَصْرِ الخَليفَةِ فانظُرا
إلى مُنيةٍ زهراءَ شيدتْ لأزهرا
مزوّقةٍ تستودعُ النّجْمَ سرَّها
فتحسبُهُ يُصغي إلَيْها لتُخبرا

(١) ليس شيء أمضى من القدر، ولا يصحّ قول الشاعر.

هي الزّهـرةُ البيضـاءُ في الأرض أُلبستْ
لهـا الـزهـرةُ الحمـراء في الجـوّ مِغفـرا
يـودُّ وِداداً كـلُّ عـضـوٍ ومـفـصـلٍ
لـمُبـصـرُهـا لـو أنّـهُ كـان أبْـصَـرا
بـنـاءُ إذا مـا اللّيـلُ حـلَّ قـنـاعَـهُ
بـدا الصّبحُ من أعـرفـهِ الشمّ مُسفـرا
تـعـالى عـلوّاً فـاتَ عن كـلِّ واصـفٍ
إذا أكـثـرُوا فـي وصـفِـهِ كـان أكـثـرا
تـرى المُنيةَ البيضـاءَ في كـلِّ شـارقٍ
تـلبّسُ وجـه الشمس ثـوبـاً مُعصفـرا
إذا سَـدلـتْ سِتْـراً عـلى كـلِّ كـوكبٍ
كَـبـا نـورُه من نـورِهـا فـتـسـتّـرا
فـإن عذرتْ شمسُ الضّحى في نجـومِهـا
على الجوّ كان القصـر في الشمس أعذرا
ودونـكَ فـانـظرْ هـلْ تَـرى من تفـاوتٍ
بـهِ أو رأتْ عـيـنـاكَ احـسنَ مـنـظرا؟
تَـرى السّـوسنَ المُنـآدَ بين ريـاضِـهـا
تـلألأ حُـسـنـاً فـي بـهـارٍ تَـدنّـرا
تـوشّحْنَ من هـذا اليـمـانيّ مُشلّمـاً
تـأزّرنَ مـن ذاكَ الـمُـلاء الـمـزعـفـرا

بمــوشِيّــةٍ يُهــدي إليهــا نَسِيمُهــا
على مفــرقِ الأرواحِ مِسكــاً وعنبــرا
سِــداوتُهــا من نــاصــعِ اللّونِ أبيضٍ
ولُحمتهــا مــن فــاقــعِ اللّونِ أصفــرا
تُــلاحظ لحــظاً مـن عُــيُـونٍ كــأنّهـا
فُصــوصٌ من اليــاقــوتِ كُلّلن جَــوهــرا
تــفكّــهْ أمــيــنَ الــلّهِ وابــنَ أمــيــنــهِ
بــجنّــةِ دُنــيــا رائــحــاً ومــبــكّــرا
إمــامَ الهُــدى لا زلتَ فـي ظــلِّ حَبْـرَةٍ
ولا زلــتُ أكســوكَ الثّنــاءَ المُحَبّــرا

وله في غرض التشبيب؛ وخرج إلى حُسْن التعليل (من الطويل):

جَمالٌ يفوتُ الـوهمَ في غـايـةِ الفكـرِ
وطــرفٌ إذا مــا فــاهَ ينــطقُ بــالسِّحـرِ
ووجــهٌ أعــارَ الــبــدرَ حُــلّةَ حــاسِــدٍ
فمنــه الــذي يســوَدُّ في صَفحــةِ البَــدرِ

وقال في البكاء من خشيةِ الله تعالى (من السريع):

مَدامِعٌ قــد خَدَّدتْ في الخــدودِ
واعــيــنٌ مَكْــحــولَــةٌ بــالــهُجــودِ
ومَــعــشَــرٌ أوعــدهُــمْ رَبُّــهُــمْ
فــبــادروا خَشْيــةَ ذاكَ الــوَعــيــدِ

فهمْ عُكوفٌ في محاريبهمْ
يبكونَ من خوفِ عقاب المجيدِ
قد كادَ أن يُعشِبَ من دَمعهمْ
ما قابلتْ أعينُهمْ في السّجودِ!

وقال في رثاء ولده (من المنسرح):

وا كَبِدا قد تَقَطّعَتْ كَبِدي
وحرَّقتها لواعِجُ الكَمدِ
ما ماتَ حيٌّ لمَيّتٍ أسَفاً
أعذرُ من والدٍ على ولَدِ
يا رحمةَ اللّهِ جاوري جَدَثاً
دفنتُ فيهِ حُشاشتي بيَدي
ونَوّري ظُلمةَ القُبورِ على
مَنْ لم يصلْ ظُلمُهُ إلى أحدِ
مَنْ كان خِلواً من كل بائقة[1]
وطيّبَ الرّوحِ طاهرَ الجسدِ
يا مَوتُ يحيى لقد ذهبتَ بهِ
ليسَ بِزُمَّيْلَةٍ ولا نَكِدِ[2]
يا موتَهُ لو أقلْتَ عَثْرتَهُ
يا يومَهُ لو تركتَهُ لِغدِ

(١) باق فلان: جاء بالشرّ. والبائقة: مفرد البوائق: الشرّ والظلم.
(٢) الزميلة: الجبان الضعيف. ورجل نكد: شؤم عسر.

يـا مـوتُ لـو لم تكنْ تُعاجِلهُ
لـكـانَ لا شـكَّ بيضـةَ البـلدِ[1]

أو كنتَ راخيتَ في العِنـانِ لـهُ
حـازَ العُلا واحتـوى على الأَمـدِ

أيَّ حـسـامٍ سـلبتَ رونَـقَـهُ
وأيَّ روحٍ سـللتَ مـن جسَـدِ

وأيَّ سـاقٍ قـطعـتَ مـن قَـدَمٍ
وأيَّ كـفٍّ أزلـتَ مـن عَـضُـدِ

يـا قمـراً أجحف الخُسـوفُ بـهِ
قبـلَ بُلوغِ السَّـواء في العَـددِ[2]

وقال (من البسيط):

الـجسـمُ في بَلَدٍ والـرّوحُ فـي بَلَدِ
يـا وحشةَ الـرّوح بل يـا غُربـة الجسدِ

إن تبـكِ عينـاكَ لي يـا مَنْ كلفتُ بـهِ
من رحمـةٍ فهُمـا سهمـاكَ في كَبـدي!

وقال في ذكر الموت (من البسيط):

مَن لي إذا جُـدتُ[3] بين الأهلِ والـولـدِ
وكـان منّيَ نحـو المـوتِ قيـدَ يـدِ[4]

---

(١) بيضة البلد: واحده الذي يجتمع إليه، ويقبل قوله.

(٢) السواء: الوسط، يريد ليلة أربع عشرة.

(٣) أي: جدت بنفسي وروحي،

(٤) القيد: القدر.

والـدّمْـعُ يهمـلُ والأنـفـاسُ صـاعِـدَةٌ
فـالـدّمـعُ في صَببٍ والنّفسُ في صُعُـدِ
ذاكَ القضـاءُ الـذي لا شيء يصـرفُـهُ
حتى يـفـرِّقَ بيـن الـرّوحِ والـجَسـدِ!

وقال في معنى فضل المال (من البسيط):

دعني أصُنْ حـرَّ وجهي عن إذالَتِـهِ
وإن تغـرّبتُ عن أهلي وعن وَلَـدي
قالوا: نأيتَ عن الإخوانِ قلتُ لهمْ:
ما لي أخٌ غير ما تُطوى عليه يَدي!

وقال في رثاء ولده (من البسيط):

لا بيـتَ يُسـكَـنُ إلاّ فـارقَ الـسُّـكنـا
ولا امـتَـلأ فَـرَحـاً إلاّ امْـتَـلأ حَـزنـا
لَـهَـفي على مَـيِّـتٍ مـاتَ الـسّـرور بـهِ
لـو كـانَ حَـيّـاً لأحيـا الـدِّين والسُّننـا
واهـاً عـليـكَ أبـا بـكـرٍ مُـرَدَّدَةً
لـو سـكَـنتْ ولهـاً أو فَـتَّـرتْ شَـجَـنـا
إذا ذكـرتُـكَ يَـوْمـاً قُلت: وا حَـزنـا
ومـا يَـرُدُّ عـليَّ الـقـولُ: وا حَـزنـا؟
يـا سيّدي ومَـراحُ الـرّوحِ في جَسـدي
هَـلاّ دنـا المـوتُ منّي حينَ منك دَنـا؟

حتى يعودَ بنا في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
لَحْدٍ، ويُلبسنا في واحدٍ كَفَنا
يا أطيبَ الناسِ رُوحاً ضمَّهُ بَدَنٌ
أستودعُ اللّهَ ذاكَ الرُّوحَ والبَدنا
لو كنتُ أُعطي بِهِ الدّنيا معاوَضَةً
منهُ لَمَا كانتْ الدّنيا لهُ ثَمَنا

وقال (من المجتثّ):

بَدا الهلالُ جَديداً والمُلكُ غَضٌّ جَديدُ
يا نعمةَ اللّهِ زِيدي ما كانَ فيكِ مَزيدُ
إن كانَ للصَّومِ فِطْرٌ فأنتَ للدَّهْرِ عيدُ
إمامُ عدلٍ عَلَيْهِ تاجان: بأسٌ وجودُ
يومَ الخَميسِ تَبَدّى لنا الهِلالُ السَّعِيدُ
فكلّ يومٍ خَمِيسٍ يكونُ للنّاسِ عِيدُ!

وقال (من الخفيف):

يا غَليلاً كالنّارِ في كَبِدي
واغترابَ الفؤادِ عن جَسدي
وجُفوناً تَذري الدُّموعَ أسىً
وتبيعُ الرُّقادَ بالسّهدِ
ليتَ مَنْ شَفَّني هواهُ رأى
زفراتِ الهوى على كَبِدي

غـــادةٌ نـــازحٌ مـــحـــلّتُـــهـــا
وكُــلَــتْــنــي بِــلَــوْعَــةِ الــكَــمــدِ
«ربَّ خَــرْقٍ مــن دونــهــا قَــذَفٍ
مــا بــه غيــرُ الجِنّ من أحــدِ»[1]

وقال في رثاء ابنه (من الكامل):

قَصَــدَ المنونُ لــهُ فمــاتَ فَقِيــداً
ومضى على صرف الخطُوبِ حَميدا
بــأبي وأُمّــي هــالــكــاً أفــردتُــهُ
قــد كــانَ في كــلِّ العُلومِ فــريــدا
سـودُ المقابِـرِ أصبحتْ بيضاً بِـهِ
وغـدتْ لـهُ بيضُ الضّمائِرِ سُــودا
لـم نُــرْزَهُ ـ لمّــا رُزِئنــا ـ وحــدَهُ
وإن استَقَــلَّ بـهِ المنــونُ وحيــدا!
لكنْ رُزِئنــا القــاسمَ بن مـحمّـدٍ
فـي فـضـلِهِ والأســود بـن يَــزيــدا
وابن المبــارك في الرّقــائق مُخبـراً
وابنَ المسيَّبِ في الحديث سعيـدا
والأخْـفَـشَـيـنِ فـصـاحـةً وبــلاغـةً
والأعْـشَـيَـيـنِ روايـةً ونَـشـيــدا

(١) استشهد بالأبيات في (شرح تحفة الخليل): ٢٦٣.

كـانَ الـوصيُّ إذا أردتُ وصيَّـةً
والـمُسـتـفـادَ إذا طلبتُ مُفـيـدا
ولّى حفيـظاً في الأذِمّـةِ حـافـظاً
ومضى ودوداً فـي الـورى مَـودودا
مـا كـانَ مِثلي في الـرزيّةِ والـداً
ظَـفِـرَتْ يـداهُ بـمـثـلِهِ مَـولـودا
حتى إذا بَـذَّ السّـوابقَ في العُـلا
والـعـلمِ ضُـمّـنَ شِـلْوُهُ مَـلحـودا
يـا مَنْ يفنّد في البُكـاءِ مـولّهـاً
مـا كـانَ يـسـمـعُ في البُكـا تَفْنيـدا
تـأبى القُلوبُ المُسْتَكينـةُ لـلأسى
مِنْ أنْ تكـونَ حِجـارةً وحَـديـدا!
إنَّ الـذي بـادَ السّـرورُ بمـوتِـهِ
مـا كـان حُـزني بعـدَهُ لِـيَبيـدا
الآنَ لـمّـا أنْ حـويـتَ مَـآثِـراً
أعيتْ عـدُوّاً في الـوَرى وحَسُـودا
ورأيتُ فيكَ مِنَ الصّلاحِ شمـائِـلاً
ومـن السّمـاحِ دلائـلاً وشُـهـودا
أبكي عليكَ إذا الحمـامَـةُ طرَّبَتْ
وجـهَ الصّباحِ وغـرَّدَتْ تَغـريـدا

لـولا الـحيـاءُ وأنْ أُزَنَّ بـبـدعَـةٍ
مـمّـا يُـعَـدِّدُهُ الـوَرى تَـعْـديـدا
لجعلتُ يـومَكَ في المَنائحِ مـأتَماً
وجعلتُ يـومَكَ في المـوالدِ عِيـدا!

وقال (من الكامل):

يُنْبِيـكَ أنّـكَ لم تَـجِـدْ وَجْـدي
مـا خـدّتِ العَبـراتُ مِنْ خَـدّي
نـامَ الـخليُّ عـن الشّـجِيِّ بـهِ
وجَـفـا المَـلولُ ولـجَّ في الـصَّـدِّ
كنتَ الشِّفـاءَ فصـرتَ لي سَقَمـاً
أبَـداً تَـتـوقُ إلى هَـوًى مُـرْدي

وقال من أُرجوزته العروضية (باب الزحاف):

فكـلّ جـزءٍ زال منـه الثـاني
من كـل مـا يبـدو على اللِّسـانِ
وكـان حـرفـاً شأنُـهُ السُّكونُ
فـإنه عنـدي اسمـهُ مخبـونُ
وإن وجـدت الثاني المَنْقـوصـا
محـرّكـاً سمّيـتَـهُ المَـوْقـوصـا
وإنْ يـكُن محـرّكـاً فـسكّـنـا
فـذلـك المُضمَـر حقّـاً بيّـنـا

والرابع الساكن إذ يَزول
فذلك المطويُّ لا يَحُولُ
وإن يزل خامسُهُ المسكَّنُ
فذلك المَقبوض فهو يحسنُ
وإن يكن هذا الذي يزولُ
مُحرَّكاً فإنهُ المعقولُ
وإن يكُنْ محرَّكاً سكّنتَهُ
فسمِّه المَعصوب إن سَمّيْتَهُ
وإن أزلت سابعَ الحُروفِ
سمّيتَه إذ ذاكَ بالمَكفوفِ

باب الزحاف الذي يكون في موضعين من الجزء:

كُلّ زحاف كان في حَرفينِ
حَلَّ من الجزء بموضعينِ
فإنهُ يُجحِف بالأجزاءِ
وهو يُسمّى أقبحَ الأسماءِ
فكُلّ ما سُكِّن منه الثاني
وأسقط الرّابع في اللّسانِ
فذلك المَخزول وهو يقبُحُ
فحيثما كان فليس يَصْلُحُ
وإن يَزُل رابعُهُ والثاني
ذاك وذا في الجُزء ساكنانِ

فإنه عندي اسمُه المخبولُ
يقصُرُ الجُزءَ الذي يطولُ
وكل جزء في الكتابِ يُدركُ
يسكنُ منه الخامس المحرَّكُ
وأُسقط السابع وهو يسكنُ
فذلك المَنقوص ليس يَحْسُنُ
وسابع الجُزء وثانيه إذا
كان يُعَدّ ساكناً ذاك وذا
فأُسقطا بأقبح الزّحافِ
سُمّي مشكولاً بلا اختلافِ
هذا الزّحاف لا سواه فاسمَعِ
يُطلق في الأجزاء ما لم يُمنعِ
باب العِلَل:
والعِللُ التي تجوز أجمعُ
وليس في الحشو لهنّ موضعُ
ثلاثة تُدعى بالابتداء
والفَصل والغاية في الأجزاء
والاعتماد خارجٌ عن شَكلها
وفِعْله مخالف لفِعلها
لأنهم قد تَركوا التزامَهْ
وجاز فيهِ القَبضُ والسّلامهْ

ومثلُ ذاكَ جائزٌ في الحَشْوِ
فَنحو هذا غير ذاك النّحوِ
وكلّ مُعْتَلٍّ فغيرُ جائزِ
في الحشو والقصيدِ والأراجزِ
وإنما أجازه الخَليلُ
مجازفاً إذ خانه الدَّليلُ
وكُلّ حيٍّ من بني حَوّاءِ
فغيرُ معصومٍ من الخَطاءِ
فأول البَيت إذا ما اعتلّا
سمّيتَه بالابتداء كُلّا
وغاية الضّربِ تُسمّى غايةْ
وليس في الحشو لها حكايةْ
وكلّ ما يَدخل في العَروضِ
من عِلّة تَجوزُ في القَريضِ
فهي تُسمّى الفَصل عند ذاكا
وقَلّ مَن يعرفه هُناكا

باب الخرم:

والخَرم في أوائل الأبياتِ
يُعرف بالأسماءِ والصِّفاتِ
نُقصان حَرف من أوائل العددْ
في كل ما شطْر يُفكّ من وتد

خمسة أشطار من الشطورِ
يُخزم منها أول الصُّدورِ
منها الطويل أول الدوائرِ
وأطْول البِناء عند الشّاعرِ

نقل ابن دحية في «المطرب» قصة جرت لابن عبد ربّه مع الكاتب أبي حفص عمر بن قِلْهيل في التسمّع على جاريته «مصابيح»؛ قال: اتفق أن اجتاز أحمد بن عبد ربّه بدارِ أبي حفص عشيّةً فقرع سمعَه من طيب الغِناء ما استوقفه وأراد الدنوّ من الباب. وقيل إنه صُبّ عليه من العِليّةِ ماءٌ بلّ ثيابه، فلم يردَعْه ذلك عن طلب الازدياد في السّماع، فعدل إلى مسجدٍ بقرب الدّار، وسأل المعلم فيه أن يأتيه بدواة وبَياض يكتُب فيه فجاءه بهما، فكتب إلى ابن قِلهيل رقعة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، طاولتكَ النّعم وطالت بك، إنا لمسنا سماءَ لهوك فوجَدْناها ملئتْ حَرساً شَديداً وشُهباً، وأنّا كنّا نقعدُ منها مقاعِدَ للسّمعِ، فمَن يستمع الآنَ يجدْ له شهاباً رَصَداً. وفي ذلك أقول (من البسيط):

يا مَنْ يَضِنُّ بصوتِ الطّائِرِ الغَرِدِ
ما كنتُ أحسبُ هذا الضَّنَّ من أحدِ
لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً
أصغتْ إلى الصَّوتِ لم ينقصْ ولم يزدِ
لولا اتّقائي شِهاباً منكَ يُحرقُني
بناره لاسترقتُ السمعَ مِنْ بُعدِ

لـو كـانَ زريـابُ حَيّـاً ثمّ أُسمِعَـهُ

لماتَ من حَسدٍ أو ذابَ من كمـدِ!

فـلا تـضنّ عـلى أُذني تـقـرّطُهـا

صَوتاً يجولُ مجالَ الرُّوح في الجَسَدِ

أمـا الشـرابُ فـإنّي لستُ أقْـرَبُـهُ

ولستُ آتيـكَ إلاّ كِسـرتي بيـدي!

وسأل البوّاب فأوصل الرقعة إليه. فلما قرأها وعَرف موضعه جاء حافياً إليه، وسأله الحضور ففعل. ثم قال ممازحاً: هاتِ الكسرة التي زعمتَ أنك ترفع عنّا مؤونتها! فقال: أنصرفُ فآتيك بها! فأقام أحمد عنده أيّاماً.

ثبت المراجع والمصادر

١ ـ وفيات الأعيان، ابن خلّكان، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ .

٢ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرّي، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ .

٣ ـ تاريخ إسبانية الإسلامية، لسان الدين بن الخطيب، دار المكشوف، ط. ٢، بيروت ١٩٥٦ .

٤ ـ تاريخ الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، دار الثقافة، ط. ٦، بيروت ١٩٨١ .

٥ ـ ابن عبد ربّه وعقده، د. جبرائيل جبّور، دار الآفاق الجديدة، ط. ٢، بيروت ١٩٧٩ .

٦ ـ الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط. ٢، بيروت ١٩٧٦ .

٧ ـ ديوان ابن عبد ربّه، تحقيق وجمع د. محمد الدّاية، مؤسسة الرسالة، ط. ١، بيروت ١٩٧٩ .

٨ ـ العقد الفريد، ابن عبد ربّه، دار الكتاب العربي، ط. ٣، بيروت ١٩٦٥ .

٩ ـ يتيمة الدهر، الثعالبي، دار الكتب العلمية، ط. ١، بيروت ١٩٧٩ .

١٠ ـ بهجة المجالس، ابن عبد البرّ، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت ١٩٨٢.
١١ ـ حضارة العرب في الأندلس، ليڤي بروڤنسـال، دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٢ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط. ١، بيروت ١٩٨٤.

الفهـــرس